

رواية

أبو صابر

الثائر المنسي مرتين

مقدمة

أبو صابر . . . بطل من بقايا السيوف ، لا يزال حيا" . . . قصة حياته اسطورة إباء و إيمان . . .
كان يتكلم ، و كنت أسجّل حديثه يوما " بعد يوم . . . تكاد تكون كلمات هذه القصة كلماته بنصها و
الصور صورته بألوانها و أبعادها .

لو كنت قصّاصا" لأبدعت له نهاية غير تلك النهاية و لكنني كتبت هنا ما سمعت و ما رأيت . . .

سيختلف الأدباء و الأصدقاء في تقييم هذا العمل الأدبي ، فنا" و لغة و تأثيرا" ، و لكنهم يتفقون جميعا " على أنها قصة رواها نثر صادق و كتبها قلم آثر أن يظل صادقا" . . .

سلامة عبيد

الفصل الأول

- أبو صابر . . .

- تفضلوا . . .

صوت خافت مرتجف يجيب ، و وقع خطوات متناقلة يقترب .

و ارتفع صرير البوابة الخشبية المتهالكة حادا " متقطعا" ، و برزت من خلفها عينان متعبتان تحيط بهما
تجاعيد رسمتها ريشة زمن قاس و ظللتها ألوان قائمة من الحرمان و الأرق و الانتظار المتعب الطويل ،

- تفضلوا . . .

و عادت تحاول الإسراع وهي تكرر :

- تفضلوا . . .

لم أتبين من ملامحها سوى عينيها ، فقد كانت تلف رأسها على عادة النساء الجليليات بمنديل سميك
أبيض ، يرقى على صدرها و كتفيها و ينساب على ظهرها حتى يكاد يلامس الأرض ، و يرتفع طرف منه لثاما "
يغطي نصف وجهها ليلتف مرة ثانية فوق طربوش قصير لاصق بالرأس يكاد لا يتبينه المرء لولا استدارة ضيقة في
قمته .

و بدت العجوز و هي تتعثر في خطاها و بأذيال ثيابها السوداء الفضفاضة التي تكاد تكنس الأرض ، بدت قصيرة منحنية تحت أعباء حمل غير منظور .

و دخلنا خلفها ، و بعد أن اختفت في داخل البيت ، باحة ضيقة طويلة يغطيها بلاط حجري بدائي يتلاصق و يتباعد بلا نظام و تظللها شجرة ضخمة من التوت الأبيض يمتطي أحد غصونها طفل حافي القدمين بدا شاحبا معروقا" ، توقف على ما يبدو عن هز أغصان الشجرة عندما فتحت البوابة ، فقي د كانت ثمار التوت و أوراقه متناثرة فوق الباحة و على أطراف حصير عتيق كانت تتخلله في يوم من الأيام بعض الخيوط الملونة .

و لم تعر الدجاجات القليلة أي اهتمام لوقع أقدامنا فقد كانت منهمكة بالتهام الثمار المنتثرة فوق البلاط البازلتي و بين جنباته .

و توقفنا قليلا تحت دالية فتية ترتفع و تمتد فوق أعمدة رفيعة من الخشب و قطع من الحديد م تفاوتة في أطوالها يتخللها جميعا" أسلاك من شريط أو أعواد قصب ، و كانت عناقيد الحصرم تتدلى ضئيلة متباعدة ، و قد ارتسم بعضها على صفحة المياه الصافية في خابية جديدة ضخمة .

- تفضلوا . . . أهلا و سهلا

و كان الصوت هذه المرة أجش متقطعا " تتبعه همهمة خافتة كأما هو يصدر من جنبات كهف بعيد و دخلنا غرفة بدت مظلمة عندما كنا نسد بأجسامنا بابها المنخفض الضيق في حين تراكم في أرض النافذة الوحيدة الضيقة وعلى جنباتها شتى الأدوات المنزلية الصغيرة و بعض علب التبغ و الكبريت .

كان واقفا" في فراشه يرتجف و قد اسند يده اليسرى الى الجدار ، وهو يجهد في أن يتقدم ليصافحنا

هذا هو أبو صابر . . .

بيجاما بيضاء متهدلة ، تخرج من كميتها كفان ضئيلتان دقت أصابعهما و استطالت و بدا جلدهما المتجعده و كأنه يغلف عظامهما مباشرة ، و يرتفع بين منكبها وجه شاحب معروق يغطيه شاربان كثيفان أشيبان و شعر خفيف ناعم تلمع في إطاره الأ غبر عينان تقرأ في نظراتهما صراعا " صارخا" بين المرارة و التجلد و اليأس و الطمأنينة ، و حاول من جديد أن يتقدم في حركة استجمع لها كل ما تبقى لديه من قوة و عزيمة ، و خيل إلي أنها كانت أكثر من حركة ترحيب لقد كانت تحديا" للمرض و الشيخوخة و الساق التي بدأت تتصلب .

كنت أتردد عليه بين الحين و الحين و كان يلقاني كما يلقي زواره القلائل بكل ترحيب و بشاشة يقدم لهم بنفسه الشاي و التبغ و السكاكر و يروي لهم بكل أنس طرائف أخباره أما اليوم فإنه لم يهمل شيئ " من بشاشته و ترحيبه إلا أنه بدا أكثر اهتماما" بمغالبة عجزه بكبرياء الذئب الجريح .

و أجلسناه في فراشه ، و هو يلهث لهاثا" خافتا" وقد تصببت قطرات العرق على وجهه الموميائي .

اسند ظهره إلى عدد من المخدات القصيرة النظيفة الملونة فوق فراش رقيق و غطى ساقيه بشرشف قطني امتد على قسم من سجادة محلية ضيقة ، و جلسنا حوله بين متكئ على مخدة صوف خشنة أو متربع فوق حافة فراش تمتد تحته حصير أو بساط من شعر الماعز و قد نسينا أن نخلع أحذيتنا في مدخل الغرفة على عادة أهل

البلد ، و لا أدري إذا كان ذلك لتسرعنا في إ سناد أبي صابر و هو يرتجف واقفا " مرحبا" ، أو لاعتقادنا بأن مثل تلك العادة صالحة لفصل الأمطار و الوحول .

و بدأت أحاديث مجاملة ، و انطلق الصوت الأبح المتقطع :

- تاي يا عيال . . .

و كانت طقطقة (البريموس) و هدير النار قد بدأ منذ ال لحظة التي دخلنا فيها الغرفة . و لم نستغرب لفظة التاي منه وقد نسي اللفظة البلدية ((شاي)) و اعتاد أن يلفظها هكذا طوال ربع قرن .

و دق الباب المشترك بين الغرفتين دقات خفيفة و برزت صينية صغيرة فوقها بضعة أقداح من الشاي القاتم فقد كان أبو صابر لا يستسيغ الشاي إلا على الطريقة المغربية :

- فرنك تاي فرنك سكر .

و توقفت اليد الممسكة بالصينية ، فأدركت أن الولد لا يزال يهز شجرة التوت و أن المرأة تحجم عن الدخول إلى غرفة فيها أغراب لا تعرفهم .

تناولت الصينية و سمعت دعاء " خافتا" يتردد داخل الغرفة المجاورة الأشد ظلمة ، و اعتذارا" متلجلجا" من الشبح المستند إلى الوسائد الملونة .

و للمرة الثانية دق الباب المشترك و توقفت بين مصراعيه صينية واسعة زينت جوانبها أوراق خضراء وانتصب فوقها هرم من ثمار التوت البلدي ، و إلى جانبه طاسة مملوءة بالماء الصافي .

و بدأت الأيدي تمتد إلى الثمار بين ناضجة رخوة أو متماسكة لتجبلها في الطاسة التي راح مؤها يزداد اصفرارا" كلما امتدت إليه يد بثمره جديدة .

و ألح أبو صابر في اعتذاره عن القهوة المرة ، فهو لم يعد يقوى على تحميصها و دقها في الجرن الخشبي المزخرف الذي بدا منزويا " كتيبا" تنتصب حوله مجموعة من الدلال النحاسية البراقة في حين ارتفع مهباج ممشوق صقيل معلقا" في ركن من أركان القنطرة .

و رحلت بين الحين و الحين أنقل النظر بين السقف الحجري و الجدران المغطاة ببعض ال زخارف من التراب المجفف و بكثير من الصور ألصق أكثرها ليخفف من تجهم الطين و ظلال القناطر الحجرية الضخمة .

و كنت استرق النظر إلى إطار صغير بلا زجاج يحيط بصورة لشابين بدأ أحدهما في لباس الجبل التقليدي ، سترة واسعة الأكمام و قنباز أبيض مخطط و قد استرسل شعره حتى الكتفين و ارتفع الشاربان معقوفين فوق شفتين مضغوطتين ، أما الثاني فقد كان يلبس طربوشا " فوق بذلة عسكرية كثيرة الأزرار و كان واضحا" أنه يافع و أنه يحاول أن يعطي لقسمات وجهه صلابة الرجال الجبليين و صرامة نظراتهم .

و استطعت أن أقرأ العبارة المكتوبة تحت الرسمين فقد كان ضوء الباب ينسكب مع الأصيل مباشرة على ذلك الركن من الجدار ، و كانت الأحرف باهتة غير أنها كانت كبيرة واضحة :

-هاذه صورت حمود و حمد .

حمود و حمد... .

و أحس أبو صابر أن الصورة أثارت اهتمامي ، رغم كل محاولة مني للتستر على ذلك الاهتمام ،
فتنهَّد و مسح من عينيه دمعة كادت تتدحرج على خده الناتئ :

- أستاذ ! أنت لا تعرف حمود ، حمود قتل في قلعة راشيا ، على سلم القلعة قدام الثوار ، و بقي حمد
، بقي للعذاب و المرارة ، ليسلي زواره بذكريات المنافي و السجون

و مسح الزبد عن شفثيه ، و أشعل سيجارة كانت قد انطفأت بين أصابعه و تابع و هو يخصص في كل
مقطع .

- ماذا بقي منك يا حمد

و قطع تهندياته دخول الطفل الشاحب المعروق الذي كان يمتطي شجرة التوت .

- سلم يا صابر ... قل أهلا" و سهلا"

وردد الولد بصوت جهوري شجاع : أهلا" و سهلا" .

ثم تقدم ، يضرب بقوة يشد اليد الممدودة لمصافحته و يرفعها إلى شفثيه ثم رأسه .

- لا يا صابر ... سلام شباب !

قلت ذلك و شددت على يده مصافحا" و أحسست و كأنه ارتاح إلى هذه الطريقة الجديدة في السلام
و لكن دون أن يستطيع التغلب على انتظاره للقبلة على خده أو رأسه .

- مخدومكم صابر ، و عندي غيره ثلاثة من حمد الله ... و رفع لفته إلى شفثيه ثم إلى جبينه و تابع .. .

من كان يحلم أنني أعود إلى الوطن حيا" ، و يصير عندي أولاد ، بعد عشرين سنة من المنفى في فرنسا
وفي الغويان ، من كان يعتقد أن أمي تضمنني إلى صدرها و أنا في السجون أموت مرة كل يوم... .

و توقف ينفث دخان سيجارته في جو الغرفة الذي بدأ يتراقص في حزم أشعة شمسها خليط من سحب
الدخان الشفاف و ذرات الغبار المتدافعة :

- مالك و مال الماضي يا حمد ... أهلا" و سهلا" .

مالي علم إنك بخيل يا بو صابر ... حدثنا ... إن قصة حياتك جزء من طفولتنا كانت حديث سهراتنا .

.. .

- ركبوه على دبابة حديد , مربوط بالشاش المملخ بالدم , حراس عن يمينه و حراس عن شماله و
المسدس فوق رأسه , ناس قلائل شاهدوه , كلهم عزّ عليهم أن يأخذوه أسيرا" . . و لكن الثوار كانوا بعيدين . . .
في الجبال . . . فوق . . .

- و كنا نتساءل , و الريح الباردة تلسع ظهورنا من تحت رواق الخيمة :

- قتلوه ؟ . . . لا . . . لا . . . حمد بطل . . . سوف يرجع . . . و سنلاقيه على المزرعة بالحذاء . . .

و بكى أبو صابر بكى مثلما تبكي النساء و تمتم :

- و أنا أيضا" كنت أعرف أنني سأعود . . . و عدت , عدت و لكن لم يعرفني أحد , أمي وحدها فرحت
بي , الناس نسو ابو صابر يا أستاذ , نسوه .

الفصل الثاني

كان عباس ذياب معلم عمار يساعده في عمله ولده حمود , شاب يحمل الحجارة على ظهره و يضرب
بالمهدة و الشاقوف بهمة و حماسة , و في المساء يعلق ثياب العمل في الوتد الخشبي البارز من الكوارة , و
يرتدي ثيابه الحريرية و يدهن شعره المسترسل بالزيت و العطر , و تبدأ سهرات الربابة و المجوز حتى ساعة
متأخرة من الليل .

أما حمد , أخو حمود , فلم يكن يبدي أي رغبة و حماسة لهذه الطريقة في الحياة فهو شاب صغير , يحلم
بالسيف و البندقية و الفرس , و تستهويه بذلات الجندي بل الجندرية ذات الازرار النحاسية الواسعة البراقة و
القلب الاسود و البارودة (العصمية) الطويلة و الجزمة الضخمة السوداء الشديدة اللمعان , و يبرز منها مهماز
كأنه من فضة .

و يبدو أنه مصمم على أن يكون جنديا" أو أن لا يكون شيئا" في هذه الحياة .

و حاول أبو حمود أن يلوح له بالعروس . فقد يحس بمسؤولية البيت و تخف مع الزمن حماسه
لصناعة الحرب , و لم يكن الأب زاهدا" في الفروسية فهو يجيدها . فقد أتقن , شأن أترابه جميعا" , ركوب الخيل
و هو يدرس أجيرا" في بيادر البلدة , و تعلم السباحة مع أنداده في المطخ الواسع و من ثم في (السورية) حيث
يقفز السباحون الصغار من النافذة المرتفعة أو من الحاكرة الأ كثر ارتفاعا " , يسترون عوراتهم بأ يديهم لا
يرفعونها حتى يضربوا بأقدامهم المضمومة سطح الماء الأخضر الآسن , في حين يتسلق بعضهم الجدار المرتفع
ليتمرغ في التراب الناعم الدافئ وليقفز من جديد , غير مكترث بالنسوة القلائل اللواتي كن يهبطن عشرات
الدرجات الحجرية البدائية الضيقة المرهقة لتناول بعض الماء في جرار مخروطية من التنك , بينما ترفع رفيعاتهن
الجرار فوق أكتافهن و يصعدن الدرج الرهيب في جهد و حذر واضحين .

أما استعمال البندقية فقد كان شائعاً " , كل بيت فيه بارودة وفي كل عرس تحرق عشرات الأمشاط , و إذا صاح المفزع حمل كل واحد سلاحه و انطلق يملأ الفضاء نارا " و بارودا", و في مناسبات كثيرة يتسابق الرماة في محاولة لقطع قضيب رفيع ينصب في السهل الواسع أو مسلة مغروسة في زاوية من زوايا السطح.

كان أبو حمود يجيد الفروسية و يتعشقها و لكنه ما كان يرغب أن تكون الفروسية راتباً " يقبض آخر الشهر , فهو يتحاشى مثل أترابه م ن أجاويد ذلك الزمن أن يدخل بيته مال من الحكومة , و مال الحاكم في نظرهم محرم .

و استعان الوالد بالأم :

- حط عينك يا حمد , أبوك لا يعزّ عنك شي . . .

و ازداد الشاب عناداً".

- العروس بعد البدلة يا أمي .

و أفاقت الأم ذات يوم لتجد فراش حمد خاليا " , و لم تستغرب فقد كانت واثقة من انه لن يبقى في البيت عالة على والده و أخيه , و أدركت أنه سيقوم بمغامرة و أنه لن يستقر حتى تلمع الأزرار الكبيرة الصفراء على صدره .

أحست بالوحشة لفراقه ولكنها كانت مطمئنة مستسلمة للقدر استسلاماً هادئاً " , و اكتفت بالدعاء له و هي تنتظر بكل لهفة و شوق بعض أخباره .

و ذات يوم فتحت الخويخة في بوابة أبي محمود و أطل منها طربوش أحمر و كانت أم حمود تنشر الغسيل فوق بعض الحجارة المتناثرة في زاوية الباحة , فرفعت لثامها في حركة خاطفة و عضت عليه بأسنانها و خنقت صرخة ذعر ما لبثت أن عقبته عبارات الترحيب المتدافقة و قد سقط اللثام عن وجهها و راحت تغمر القادم الغريب الزي في لهفة أم .

و شعرت أم حمود أن الجيران و الجارات و الأولاد و البنات قد تجمعوا أمام بوابة الدار و تجرأ بعض الصبيان على اقتحام الباحة بينما أ سرعت بعض النسوة إلى السطوح المطلة على الباحة ليشهدوا الشاب الغريب الزي , الشديد الغرابة :

طربوش أحمر طويل واسع , و بذلة عسكرية تلمع على صدرها أزرار كبيرة صفراء و يشد خصرها حزام عريض من الجلد اللامع و حذاء أسود ضخّم مرتفع تدق مساميره الكبيرة الأرض دقا " , و لفافات سمراء تشد الساقين في طباط متعاقبة مرصوفة .

و عندما عاد أبو حمود من عمله , و هم بفتح الخويخة عبقت بأنفه رائحة المغربية الشهية و شاهد أمام البوابة ريش الديك المزهر الوحيد عريس الدجاجات فأدرك أن في البيت ضيفاً " غالباً".

قبل أبو محمود ولده بحنان متحفظ ، فهو لا يريد أن يشجعه و لكنه لا يستطيع أن يكون قاسيا " عليه ، و إن هو غادر البيت بدون استئذان و لبس البدلة العسكرية دون موافقة والديه .

كان فاترا" و لكنه مع ذلك ظل يختلس نظرات الإعجاب و الاعتزاز إلى ولده الشجاع المعتد بنفسه .

و أحس الوالد أن فرصة التلميح بالعروس أصبحت ممكنة فأسر إلى الأم ، التي أسرعت إلى ولدها تختلي به :

- حط عينك يا حمد ، كلنا قدامك .

ابتسم حمد هذه المرة .

و أحست الأم بنشوة الفرح تسري في عروقها و كادت تزغرد . ولكن كيف تزغرد وهي لا تعرف من يعني حمد بهذه الابتسامة .

فعادت تطلب إليه أن يسمي .

و نطق حمد باسمها بحياء و تلثم .

و بدت في عيني الأم نظرة ارتياح و فرح : حمد لا يخيب الظن ، لقد أحسن الاختيار .

- اتكلنا على الله .

و طبعت الأم على جبين ولدها قبلة خاطفة . . . و بدأت وشوشات الحي .

- فلانة على حساب فلان .

- يستاهل . تستاهل هي .

أهلها لا يزوجون الطربوش الأحمر . الطربوش الأحمر ما هو عيب ، الشاب من أنبل الشباب ، صحيح أنه ما هو غني ، و أن عائلتهم ما هي من عائلات البلد الكبيرة ، لكنهم رجال أصحاب ناموس .

و أحست العروس بتعلق غريب بالخاطب الشاب ، فهي تعرفه من قبل فقد تحدثت إليه على طريق (الكوم) في مواسم الورد ، و في حقول الحصاد و في مناسبات كثيرة غيرها ، و كان يسترعي انتباهها أما الآن فإنها بدأت تشعر بخفقان قلبها و تورد وجنتيها على غير ما عهدت من قبل و أحست كلما غمزت رفيقاته من ((العسكري)) بأنها كانت تزداد اعتزازا" بالطربوش الأحمر و الأزرار الكبيرة الصفراء .

أما هو فقد كان يبادلها اهتماما" باهتمام و شوقا" بشوق و أحس بالصراع الخفي بين حنينه إليها و بين تصميمه على أن يظل جنديا" .

و أخذ يتحرى من أوضاع رفاقه في الخدمة بشيء من الحذر و الحياء ، علّه يستطيع أن يوفق بين العروس و بين البذلة .

و أحس بالطمأنينة عندما تأكد لديه أن أكثر رفاقه متزوجون وأن راتب المتزوج هو دائما " أكبر من راتب مثيله العازب , و أنه يسمح لهم بأن يعودوا إلى بيوتهم ليلتين أو ثلاثا " في الأسبوع , و أن للعسكريين تعاونية تقدم لهم المواد الغذائية و للملابس و الكماليات الصغيرة بأسعار متهاودة .

و هكذا بدأ يحس بالسعادة تغمر نفسه .

و بالغد المشرق ينتظره باسماء " غنيا " بالأمل .

و من ثم أخذ يزداد حماسة لمهنته الجديدة .

* * *

و لم يكن حمد ذياب جنديا " نظاميا " في كتائب جيش الشرق الذي بدأت فرنسا بتشكيله في سورية عقيب ميسلون و الذي كان يضم عددا " كبيرا " من الشباب السوريين و اللبنانيين العاطلين عن العمل و الذين خربت بيوتهم المجاعات و الحروب و المصادر أو الذين تستهويهم الحياة العسكرية فقد كان صغير السن لا يستطيع تحمل أعباء الجندية الشاقة لذلك ألحق بكتيبة التموين و خصصت له عربة يجرها زوج من البغال الضخمة .

كان حمد واضح الاعتزاز بعربته ذات العجلتين العاليتين و كان عندما يمسك بأعنة البغلين وهو جالس على المقعد المرتفع , لا يهتم كثيرا " بالسوط المعلق إلى جانبه فقد اعتاد أن يكتفي بنبترات صوته و بتحريك السيور الجلدية بعنف أو بهدوء حسب متطلبات السرعة أو البطء .

و كثيرا " ما شعر حمد بأن الناس في طريقه بين المعسكر و المدينة ينظرون إليه نظرات غريبة , و لم يكن بادئ الأمر يهتم لنظراتهم , ولكنه بدأ مع الزمن يتساءل :

- لماذا ينظرون الناس إلي هكذا ... صحيح أن الطربوش يكاد ينزلق حتى أذني ... و أن البذلة تكاد تكفي لشخص آخر معي ... و لكن ...

و أحس حمد أن زيه المستغرب و حدائة سنه و ضآلة حجمه بالنسبة إلى العربة الضخمة أحس أن ذلك يسترعي الانتباه إلا أنه في أعماق نفسه راح يفتش عن سبب آخر .

و بدأ يتكشف شيئا " فشيئا " سر النظرات الغريبة التي كان بعض الناس يرمونه بها .

فقد كانت المدينة من حين إلى حين تضطرب فيمنع الجنود من الاقتراب منها و يحجز عليهم في معسكراتهم , و لا يسمح إلا لمفارز من السنغاليين و الملقاش للقيام بدوريات في أطراف المدينة و أحيانا " لا يتورع قوادهم عن التغلغل بهم نحو المدينة وعندئذ تقفر العاصمة الكبيرة ولا يسمع في الشوارع إلا وقع أخطيتهم ذات المسامير الضخمة و بعض الطلقات النارية تدوي رهيبية متقطعة و في كثير من الأحيان كانت هذه المفارز تتعرض في بعض المنعطفات أو الأحياء المغلقة أو بالقرب من بعض المدارس إلى مضايقات , هتافات معادية و قذف حجارة , و تظاهرات تتفرق هنا لتجتمع هناك .

و كان حمد , عندما يتاح له أن يصل بعربته إلى سوق الهال ليحمل منه الخضار و الأرزاق إلى المعسكر , كان يسمع من حين إلى حين عبارات و وشوشات خيل إليه باديء ذي بدء أنها الغاز , أو اصطلاحات تجارية , و لكنه ما لبث أن بدت الأمور تتجلى لعينيه و ذهنه أكثر وضوحا " , فلقد بدأ يعرف أن المدينة تكره العسكر , و أن الاضطرابات التي تقوم فيها من وقت لآخر ما هي إلا بسبب وجود أولئك الجنود في المعسكرات المحيطة بدمشق .

و لم يحاول أن يسأل عن أسباب هذا الكره و دوافعه , فقد أحس في أعماق ذاته أن مثل هذه الأسئلة لا تطرح على أناس لا يعرفهم و لا يعرفونه .

و جرب أن يتصل ببعض أبناء بلده القادمين من الجبل ولكنه قلما كانت تتاح له فرصة الوصول إلى حي الميدان و باب الجابية حيث يترددون , أما المنطقة المطلة على طريق بيروت و معسكرات المزة فلم تكن تثير فضولهم و لم يكن هناك أي عمل أو مصلحة تحملهم على ارتيادها .

و أخذ يربط بين حادثة أدهم خنجر منذ سنتين و اضطرابات المدينة و كرهها للعسكر المحيطين بها , فقد كان في السويداء عندما سيق من القرية إلى القلعة تحت حراسة مشددة شخص غريب عن الجبل , قيل أنه من جبل عامل , و أنه رئيس عصابة حاول اغتيال الجنرال في جهات القنيطرة .

و أنه جاء لاجئا" أو ضيفا" على دار سلطان في القرية و أن الباشا كان غائبا" آنذاك , و عندما علم بالأمر , عز عليه كثيرا" أن تلقي السلطة القبض على ضيفه و حاول أن يتوسط الأمر و لكن الحاكم لم يقبل إلا بنقل الأسير بطائرة إلى دمشق .

و ثأر سلطان لأدهم و لشرف داره , رابط مع بعض خيالاته و هاجم ثلاث مصفحات أحرق اثنتين منها و قتل الليوتانان الفرنسي و انسحب إلى الجنوب نحو الأردن مع عياله و بعض رفاقه و مواشيه , تاركا" داره و غلاله طعاما" للنيران , و تذكر حمد أن حاكما" فرنسيا" قد حلّ في السويداء محل الحاكم المحلي , و أن الناس أيضا" في الجبل بدأت تتذمر من قسوة الحاكم و استبداده .

و أخذ حمد يصل إلى استنتاجات شخصية بدأت تشغل باله و تقلق نومه .

فلماذا تظل المدينة الكبيرة دائمة الاضطراب و هي تبدي كرهها للجنود .

و خيل لحمد أن المدينة تكره العساكر بسبب عوامل دينية أ و عنصرية و لكنه لم يقبل بهذه الفرضية , فالجنود أكثرهم مسلمون من البلاد و من المغاربة الشديدي التدين و هم خليط من اللهجات و الأجناس و في المدينة أيضا" لهجات كثيرة و أجناس كثيرة بدو و حضر و أرمن و أكراد و شراكس . . .

و تمكن حمد بالفطرة أن يدرك تدريجيا" أن المدينة الكبيرة تكره الجنود هؤلاء الذين يخدمون دولة أجنبية دخلت البلاد بالقوة و فرضت عليها حكاما" غرباء و أنظمة لم تألفها و بدلت الذهب بأوراق ملونة . . .

و مع الزمن بدأ يحس بأن حماسه للمهنة الجديدة بدأت تخف و تطلعه إلى العودة يزداد يوما"

بعد يوم .

و جرب أن ينسب هذا الشعور الجديد إلى شوقه لأهله و للعروس في محاولة منه لإذكاء الهمة التي بدأت تفتت و الآمال التي بدأت تنكمش , إلا أنه لم يجد في هذه المحاولة تعزية , و لم يلبث أن أقنع نفسه بأن هذا الشعور أشد ع مفا" و أقوى من عاطفة شوق أو حنين لمسقط رأسه و أخذ يفكر فعلا " و يحدد لنفسه الزمن الذي يستطيع أن ينهي فيه ارتباطه مع الجيش بحجة أو بأخرى و أحس أنه سوف يقوى على اندفاع الشباب و طموحه فلا يوقع عقد التطوع المقبل كجندي محترف .

و شعر بالطمأنينة لهذا القرار و أخذ ينتظر نهاية العام و هو يغالب بقايا نزعات في نفسه تعكر عليه بين الحين و الحين هدوءه و استقراره .

و راح المتطوع الصغير منذ أوائل الصيف ينتظر نهاية العام ليضع حدا " لهذا الاضطراب النفسي الذي بدأ يؤرجحه ذات اليمين و ذات الشمال و يرسم أمامه المستقبل في صور متناقضة مشوشة مؤرقة , غير أنه لم يكن يعلم بأنه كان على أبواب مغامرة طويلة مثيرة قاسية .

فقد تردد ذات أصيل في المعسكر بوق التجمع , على غير عادة , فتراكم الجنود و هم يتحسسون أحزمتهم و أزرارهم و يضربون أحذيتهم بقطعة قماش أخرجوها من جيوبهم في محاولة لنفض ما علق على تلك الأحذية من غبار و اصطفوا في رتل أحادي طويل بعد أن تلمسوا طرابيشهم الحمراء المغضنة و وقفوا وقفة الاستعداد , بلا سلاح .

و خاطبهم القائد بلا مقدمة :

- غدا" صباحا" تنطلق قافلة التموين إلى بيروت لنقل الأرزاق , أسلحتكم معكم . مفهوم ؟ و ضرب الرجال الأرض بأقدامهم ضربة قوية واحدة , دون أن تهتز لهم شفة أو جفن و انصرفوا مسرعين في شبه فوضى و هم يصرخون صرخات فرح مكبوتة .

كانت بيروت بالنسبة لمن يعرفها منهم مجموعة من الذكريات يزيدنها الزمن و البعد تألقا" و حلاوة , أما الذين لا يعرفونها فقد فجر هذا النبأ المفاجئ تلهفا " عارما" بدا على أسارير الرجال و في وثباتهم الخفيفة المرحة .

أسرع حمد إلى الإسطلب يتفقد بغليه و عدتها و طعامهما , و من ثم انطلق إلى عربته يحمل في يده علبة أخذ يتناول منها في إصبغه شيئا" أسود لزجا" و يدهن به محور العجلة .

و عندما اطمئن إلى أن كل شيء جاهز , قفل راجعا" إلى مهجعه و تناول بندقيته الافرنسية الطويلة , و راح ينظفها و يلمعها بكل هدوء ثم عاد إلى ذخيرته يتفقدتها و إلى أمتعة نومه ي تأكد من لياقتها , فقد أخبره رفاقه من قبل أن بيروت هي على ثلاث أو أربع مراحل من دمشق .

و عندما دق البوق في المعسكر معلنا" إطفاء الأنوار كان حمد لا يزال في ثيابه الرسمية و خيل إليه أن ينام دون أن يبدلها , إلا أنه عاد فأسرع يخلعها , و ألقى برأسه على مخدته الخشنة و لف جسمه ببطانية مزدوجة رغم بشائر الصيف , و قد علمته التجربة أن ليالي المعسكرات المنتشرة فوق روايي المزة تزداد في الهزيع الأخير برودة شديدة الإيذاء . و حاول أن يغفو .

أغمض عينيه و مد ساقيه في حركة استرخاء , مصطنعة , ولكنه بدلا " من أن يستسلم للنوم استسلم إلى خيالات و صور متعاقبة متدافعة , مشوشة حيناً " واضحة أحيانا", ترتسم فيها بعض أحداث الماضي , و تختلط في أكثرها رؤى مستقبل مترجح مثلما تتراءى أضواء مدينة غريبة بعيدة في غلالات الضباب الدائم الحركة .

لم تكن هي الليلة الأولى التي ينتابه فيها الأرق , إلا أنه أحس أنه خير له أن يفتح عينيه و يكوم جسمه الناحل و ينتظر تباشير الصباح بدلا " من أن يظل يرهق نفسه في التقلب من جنب إلى جنب علّه يجد في هذه الوضعية أو تلك سبيلا" لإغفاء مريحة .

و كان المهجع الكبير , على غير عادته من السكون الرهيب , فقد بدا واضحا " أن قسما "من الرجال يغالبون الأرق , فقد كانت الأسرة الحديدية الضيقة تصر بين الفترة و الفترة عندما يتقلب الجسم الممدد فوقها من جنب إلى جنب .

و قبل أن يدق بوق الاستيقاظ , كانت الحركة قد دبّت في المهاجع و أخذت قعقعة السلاح الخافتة و وقع الأحذية الضخمة و همهمة الجنود تسمع , و من ثم تدافع الرجال نحو عرباتهم و بغالهم يسابق بعضهم بعضاً" و في عيونهم حمرة من أرق و في حركاتهم تثاقل من عياء .

و اصطفت العربات الفارغة إلا من بعض الزاد و الأغطية بسرعة مذهلة و وقف كل واحد متشبثا " بعنان بغله بيد و ممسكنا" بالأخرى بندقيته و قد تدلى على جانبه غمد لحربة طويلة .

كان التفقد طويلا " مملا" , و ربما بدا كذلك , و لكن الأمر بالمسير ما عتم أن دوى فتحرّكت القافلة الطويلة ببطء إلا أنها ما لبثت أن سارت بشيء من السرعة و النظام يواكبها ضابط و بعض ضباط الصف فوق خيول مهجنة و سيوفهم تلمع تحت ضوء الشمس التي بدأت تغمر بأشعتها رؤوس التلال .

و سارت بشيء من التثاقل سيارتا شحن إحداهما في المقدمة و الثانية في المؤخرة و فيها عدد من الجنود يدوسون بأحذيتهم الغليظة أكواما" من الخيم الصغيرة .

كانت التلال العالية الجرداء تنتصب حادة موحشة على جانبي القافلة إلا أن وشوشة النهر حيناً " و هديره أحيانا" و حفيف أوراق الحور و الصفصاف و المشمش كانت تضيء على الجو شيئا " من البهجة في حين كان بعض الفلاحين في بساتينهم أو في طريقهم إلى المدينة يرددون أبيات العتابا يقطعها بين الحين و الحين صوت يحث الدابة على الإسراع .

و سمح للجنود بالتدخين و الغناء , فانطلق دخان السجاير أزرق شفافا يت لاشى في الفضاء الصافي اللامتناهي , و اختلطت أغاني الشعوب اختلاطا" مثيرا" متناثرا", فقد كان الرجال من أجناس و مناطق شتى , من الهند الصينية و شرق افريقيا و غربها و شمالها و من فرنسا و سورية و لبنان .مجموعة من البشر كانت في كتائب التموين أكثر تعددا" في أجناسها و مذاهبها و أوطانها و ألسنتها و أشد تنافرا" في قاماتها و لون بشرتها و قسما ت وجوهها , و أعمق تناقضا" في أخلاقها , و مشاربها , إلا أنها كانت جميعا" تنقل الأرزاق و المؤن لجيش الشرق , في زي و نظام عسكريين , و لم يستطع إلا أقلهم أن يرتفع بتفكيره عن المستوى المادي للحياة اليومية

فقد كانوا شبان فقراء أميين في بلاد غلبت على أمرها فالتمسوا العيش متطوعين أو أرغموا على الخدمة بموجب قوانين التجنيد النافذة في المستعمرات وقل منهم من أحس بارتباط هواية جارفة أو احتراف محبب .

كان أولاد القرى بسرويلهم و قمصان نومهم الفضفاضة ، و طاقياتهم البيضاء ، و جعب القماش المزركش المدلاة على جوانبهم ، يبرز منها لوح حجري أو كراسية مفتولة الصفحات كانوا يلوحون بأيديهم للقافلة براءة الأطفال و فضولهم ، في حين كان الرجال يلقون عليها نظرة ازدراء خاطفة ، بينما تلتف النساء و البنات بمآزر ملونة يلتصقن بها و يتأملون القافلة طويلا " من خلف المشربيات أو جذوع الأشجار بعين واحدة أو بكلتيهما .

و بدأ النهر بصفاه الكثيفة الخضرة يبتعد بسرعة و أخذت حدة الجبال المرتفعة تخف و تتلاشى ، و الهواء يزداد سخونة و الطريق خشونة و تصعبا " و الغبار كثافة " و اصفرارا " ، و راحت البغال تنصبب عرقا " لرجالا " و الرجال يحتمون من حرارة الشمس المرهقة بتغطية رؤوسهم بمحارم يدخلونها تحت طرايشه م فتتدلى أطرافها على آذانهم و أقفيتهم .

و انقطع الغناء ، و بدأ الرجال يحثون بغالهم بالسوط يفرقع في الهواء بصرخات جافة رتيبة

دي... هوس... دي... دي...

و بدأ فجأة أمام القافلة نجد عار منبسط ، أحست معه العربات الفارغة بشيء من الراحة و النشاط فاندفعت متلاحقة ، في حيوية ظاهرة تزيدها في فترات نادرة بوق سيارة فورد تملأ الفضاء غبارا " و هديرا " ، و قد التف ركابها رغم الشمس المحرقة بأغطية يتقون بها سحب الغبار المحومة خلفهم و على جانبهم .

و في نهاية ذلك النجد المنبسط ، الذي عرف حمد فيما بعد أنه صحراء الديماس بدأت الطريق تهبط و تتعرج و تضيق بشكل خطر و كان على الرجال أن يظلموا على غاية من الحذر و اليقظة و لا سيما عندما تقبل ، و نادرا " ما تقبل سيارة شحن عسكرية أو سيارة ركاب صغيرة تراكم فوقها التراب و تدافع من مقدمتها بخار كثيف و صوت غليان الماء مختلطا " بهدير المحرك الأجنس .

و عندما بدأت الطريق تصعد من جدي د في الجبال المنخفضة الجرداء أحس الرجال بالجوع فتناولوا بعض ما في عرباتهم من زاد و راحوا يلتهمونه بلا شهية و يشربون وراء كل لقمة جرعة كبيرة من ماء فاتر .

طريق ممل موحش عار و شمس محرقة و غبار و عرق و عربات تتلاحق بشيء من الكسل و التراخي

و فجأة رفع الضابط رئيس القافلة جسمه قليلا " فوق السرج و لوح بيده و صرخ بكل ما في صوته من قوة و حدة :

هالت ...

توقفت العربات ، و أخذ الرجال يتحسسون أسلحتهم ، و تراكض ضباط الصف ، فتقدم الرئيس و أشار إلى سهل واسع مكشوف إشارة دائرية و أعطى أمره بالاستراحة و نصب المخيم .

قفز الرجال إلى الأرض و أخذوا يجرون بغالهم بالأعنة و أخذوا يجرون بغالهم إلى السهل المصائب للطريق و دبت في القافلة حركة ضجة و قرقعة ما لبثت أن خفت شيئاً " فشيئاً" و انتصبت في ذلك السهل الصغير مجموعة من الخيام الصغيرة تحيط بها في شبه دائرة عربات جاثمة ربط إلى جوانبها عدد كبير من البغال أدخلت رؤوسها في أكياس العلف بعد أن ارتوت من جدول صغير ينساب في خندق ضيق على جانب الطريق .

كان الوقت أصيلاً , فانتشر الرجال يجمعون من ذلك السهل ما يستطيعون جمعه من أشواك و عيدان جافة لتهيئة الشاي و الاصطلاء , فقد بدا واضحاً " أن الليل سيكون قارساً" في هذا النجد المكشوف الذي تحيط به التلال المرتفعة و تطل عليه قمم جبل الشيخ يغطيها بقايا ثلج يسطع تحت أشعة الشمس في مزيج من أرجوان و بلور .

تجمع كل جنس من تلك القافلة في حلقة صغيرة أو كبيرة و علا اللغط و الهمهمة و انطلقت الأيدي تلوح في الهواء معبرة عن طلب أو خبر , وعندما أقبل الظلام كانت دوريات الحراسة قد وزعت و النيران تشب و تخدم هنا و هناك و أكواب الشاي تلمع و تصطك .

و حاول حمد أن يعتزل رفاقه لا كرها بهم و إنما لاعتياده العزلة و لشعوره بشيء من الحرج و الارتباك في مثل تلك الأجواء التي ينطلق فيها الجنود على سجيتهم يروون مغامراتهم و تجاربهم دون أي تورع أو تحفظ . إلا أن صديقه الكابورال محمود دعاه إلى حلقة في ما يشبه الأمر :

- تعال هنا يا ولد العرب . . .

و أكد عليه في حركة سريعة من يده بدت على ضوء النار و كأنها إشارة ساحر فتقدم حمد بلا وجل و جلس يشرب الشاي القاتم و يصغي بشيء من الاهتمام إلى أحاديث الرجال , و كانوا جميعاً "عرباً" من شمال افريقيا تغلب على لسانهم تعابير من الفرنسية المشوهة و في لهجتهم حدة ترص الألفاظ و تشد على بعض المقاطع شداً" تختفي معه المقاطع الأخرى , إلا أن حمد استطاع أن يستوعب بشيء من الجهد كل ما دار في تلك السهرة الطريفة الخاصة من أحاديث بعضها جدي وأكثرها ماجن رخيص.

و لم تطل هذه السهرة الفريدة كثيراً " فقد بدأ الرجال ينسحبون واحداً" واحداً" إلى خيامهم و لم يبق سوى الكابورال و الفتى الجبلي الذي اعتاد السهر و الاصغاء باهتمام إلى أحاديث المضافات و السمر حتى ساعة متأخرة من الليل حول شاعر يغني على الرابطة أشعار البداوة و طرائف أخبار الحب و الحرب .

أشعل الكابورال محمود سيجارة من عود يحترق و قدم لزميله الشاب سيجارة أخرى و لكنه اعتذر باقتضاب , فأعادها الكابورال إلى علبة الصفيح الصغيرة التي يحملها , و تناول قبضة من العيدان الجافة و رمى بها فوق النار التي بدأت تخبو فتوهجت في هدأة الليل دافئة منيرة ثم ألقى بعض الأعشاب الخضراء التي كان جمعها بنفسه من السهل فعقب الجو برائحة عطرية منعشة , و نفث دخان سيجارته عدة مرات متلاحقة ثم سمر عينيه طويلاً" في رفيقه الشاب , فأحس حمد برعشة خفيفة تهزه هذا " ولم يستطع أن يتأكد في ما إذا كان مصدر تلك الرعشة هو تلك النظرة الرهيبة التي زادها تألق النار و توجها غرابة و نفاذاً" , أو أنها كانت نسمة قارسة جعلته يرفع قبة معطفه يغطي به أذنيه و يلتثم بها في محاولة لإخفاء اصطكاك أسنانه المفاجئ .

و انطلق كابورال محمود يتمتم :

- اسمع يا سي أحمد , أنت دخلت العسكرية من أجل الخبز , أو من أجل البدلة لكن كابورال محمود أخذوه بالقوة من بين يدي أبيه و أمه , ليخدم العلم . . . علم الدولة التي احتلت بلاده منذ أكثر من تسعين سنة .

و عاد ينفث دخان سيجارته من جديد و هو يسمر عينيه في صديقه الشاب و كأنه يقرأ فيهما الأثر الذي تركه في نفسه هذا الحديث المفاجئ . . .

و ارتفعت نبرات صوته قليلا" و تابع حديثه في عصبية ظاهرة و هو يجهد في إخفائها تحت ستار من الهدوء المصطنع :

- حملتنا باخرة كبيرة إلى بيروت من ميناء وهران , مئات و مئات , و من هناك انتظمنا مع جنود المستعمرات في حملة ضخمة سارت باتجاه دمشق .

كان الشائع و المعروف بيننا أن الملك فيصل يطلب مساعدة الجيش الفرنسي و أنه اتفق مع الجنرال الكبير على أن يعاونه هذا الجيش في حفظ أمن البلاد .

و سارت الحملة تتقدمها المصفحات و تحلق فوقها بعض الطائرات , و عندما وصلنا إلى أسفل هذا الوادي (و أشار بيده إلى منطقة مظلمة عميقة) بدأت المدفعية و الطائرات تضرب بشدة باتجاه هذا السهل الذي نخيم فوقه , و تقدمت المصفحات و أكثرنا لا يعلم من الأمر شيئاً " , و عندما وصلنا إلى هنا كانت بعض الجثث مرثورة فوق السفوح , و بقايا أسلحة و عتاد و خيول .

و وقف الضباط يؤدون التحية لجثة تكومت فوق بقعة من الدم المتجمد و قد تدرجت إلى جانبها قبعة طويلة من الفرو في أعلاها باقة من ريش النعام الأبيض و عندما حمل القتييل فوق نقالة ميدان كان وجهه لا يزال وضاء " مشرقاً" و الأوسمة تغطي صدره الملطخ ببقع الدم الممزوج بالتراب و الحصى الناعمة .

و هناك , في سفح التلة رفع النعش على أصوات أبواق حزينة و قعقعة و داعية من السلاح و تناول كابورال محمود قبضة أخرى من الأعواد الجافة و الشوك فتألفت النار من جديد و ألقى بعض ومضاتها ضوءاً " خافتاً" على البقعة القريبة المسورة الموحشة .

و تابع كابورال محمود و كأنه ينفس بهذا الحديث عن صدر مثقل بالذكريات المريرة و المكبوتة :

و هنا في ميسلون فهمنا أن الجيش قادم لاحتلال الشام و أن الملك فيصل هر ب باتجاه فلسطين و أن كل مقاومة قد انتهت مع مقتل وزير حرية الملك , و تفرق قواته التي كانت ترابط منذ ساعات في هذه السفوح .

و من دمشق , انطلقت القوات بمقاومة حينا و بلا مقاومة أحيانا" نحو الشمال و الشرق .

و بقي عليها أن تدخل جبل الدروز . . .

و نظر الكابورال محمود نظرة عميقة فاحصة ليرى مدى اهتمام سميره , فلم يستغرب أن يراه وقد تحول إلى كتلة من الانتباه و التلهف و قد أرخى معطفه عن أذنيه و شبك يديه فوق صدره على طريقة أولاد الكتاب :

- و علمت في ما بعد لماذا تأخر الفرنسيون سنة كاملة بعد ميسلون قبل أن يرفع علمه فوق قلعة السويداء و يخصص لحراسته سرية واحدة فقط من الجيش .

أنت ابن السويداء , و أنا أعرف أنه يعز عليك أن أمس شعور أولاد بلدك , و لكن معليش . . هل تسمح لي أن أكمل حديثي ؟

ه ز حمد رأسه علامة الموافقة دون أن يختلج له جفن أو شفة و تابع الكابورال :

- كان من أولاد بلادي ليوتنان أحمد , رحمه الله و كنت في فترة من الزمن مرافقا " له و كان يحدث بقسوة و شجاعة عن الحكم الفرنسي . و سمعته مرة يحدث عن الجبل :

- بلاد رجال أشداء , فرسان , عشاق للحرية و الكرامة , جبلهم وحده عصي على العصملي بالدم و البارود .

فرنسا لم تستعمل في كل تاريخها الاستعماري الحيلة و الدهاء إلا في دخول تلك المنطقة المجدولة بالدم , قالت للزعماء مالنا و مالكم أنتم حكام في بلدكم و لكم حرية المعتقد و العادات و التقاليد و الإدارة , لا نطلب منكم إلا أن تسمحوا لنا برفع العلم الفرنسي رمز الصداقة بيننا و بينكم و تسمحوا بإقامة حامية لا تزيد عن المئة جندي لحراسة ذلك العلم .

و في الخفاء مد بعض زعماء بلادكم و قبضوا الذهب , و المناصب , و الوعود , و آخرون استسلموا للواقع و قلائل أدركوا الفخ المنصوب .

و لكنهم لم يستطيعوا أن يحملوا الناس على حرب خاسرة بعد أن احتل الانكليز الأردن و فلسطين و العراق و الفرنسيون سورية الداخلية و الساحلية .

- بلادكم على فوهة بركان , بالأمس حادثة أدهم خنجر , و غدا " دماء و خراب و تشرد . . و راس سيدي عبد القادر . . .

اقترب موعد تفتيش الحرس . . . تصبح على خير .

و قفز مسرعا " وهو يتحسس مسدسه , في حين ظل حمد و كأنه قد سمر في مكانه برهة من الزمن لم يلبث بعدها أن ألقى على النار حفنة تراب و انسحب إلى أقرب خيمة يلف نفسه بالبطانيات التي كان يجلس فوقها , و يصنع من حذائه و معطفه مخدّه , و يستسلم إلى نوم عاجل , ساهم أرق الليلة الماضية و عناء النهار و الإرهاق الذهني في جعله عميقا " ثقيلًا " .

الفصل الثالث

نهض حمد متناقلا" في الصباح و هو يتمنى على غير عادته لو سمح له أن يستسلم من جديد إلى النوم , و أحس لأول مرة , و بعمق , قسوة النظام العسكري .

و عندما راح يهين عربته للرحيل الوشيك , كان شارد الذهن , مرهقا" منقبضا" .

تحركت القافلة , و تحرك معها حمد , و قد اختلطت و تدافعت و تشابكت في رأسه صور كئيبة دامية , أضفى عليها السهل المقفر الحزين و القبر الفريد المهجور جوا" من الخشوع الرهيب .

و سارت القافلة في صمت و كأنها هاربة من ذكريات تضغط على حناجرها بيد متصلبة باردة . و ما لبثت الطريق أن بدأت تنحدر انحدارا" مخيفا" و تتلوى منعطفاتها المتعددة المتلاحقة , تسندها من جهة سفوح التلال , و تفخر على جوانبها الوديان السحيقة أفواهاها الجافة في انتظار فريسة وشيكة الوقوع .

و ساد السكون و اليقظة و سحابة من خوف , يقطعها بين الحين و الحين تنبيهات مشددة من صف الضباط الذين كانوا قد توزعوا على طول القافلة .

و بدت الطريق في أسفل الوادي منبسطة و أن ظلت متعرجة تحشرها عن الجانبين جبال ع الية , و تنتصب كأنها جدران تيه أسطوري .

توقفت القافلة في م دخل الوادي , وادي القرن , الذي أضفى عليه قطاع الطرق و الهاربون من وجه السلطة شهرة رهيبة , و الذي بدت كهوفه و صخوره و الشجيرات القليلة المعلقة في الهواء و بعض الغربان و النسور المحوومة في أجوائه و الظلال التي كانت تخمره , آنذاك مظلمة شفافة .

بدت جميعها توحى بالوحشة و القلق .

أعطيت تعليمات جديدة فعمّر الرجال بنادقهم و وضعوها فوق ركبهم و نهروا بغالهم بلا حماسة و انسابوا في الوادي الرطب في صمت و ترقب , و تلاحقت العربات بشيء من السرعة كأنها هي تحاول أن تفلت من هذا الوادي الرهيب .

و فجأة برز سهل أخضر قصير المدى كأنه واحة الرجاء و ظهر الأفق ضيقا" على الجانبين إلا أنه كان أرحب من شريط السماء المتعرج الذي كان يجثم فوق الوادي كسقف من الزجاج الأزرق الشفاف و عادت القافلة من جديد تنساب في واد آخر , أكثر انحدارا" إلا أنه كان غنيا " بالأشجار الصغيرة المتشابكة و الزهور البرية , ترتقي في جنباته و تتعلق بشجيراته بعض قطعان الماعز فوق سفوح أقل حدة , و تسمع فيه زقزقة العصافير التي بدأت تهجر أعشاشها .

و بدأ حمد يستعيد شيئا " فشيئا" نشاطه و حيويته , و أخذ يشعر في أعماقه و كأنه يدخل في عالم سحري مشوق , و راحت أبيات العنابا تجيش في حنجرتة إلا أن ف مه ظل مطبقا" و عيناه تنتقلان بإعجاب و استغراب بين السفوح العارية أحيانا و المكسوة غالبا بأحراج قرزمة إلا أنها متشابكة تتخللها بعض البقع الملونة .

و عندما أطلت القافلة على السهل المست ند إلى الجبال الهائلة البعيدة و التي تسد الأفق بهاماتها
المكحلة بالثلوج , استعاد الرجال أنفاسهم و انطلقوا على سجيتهم في فوضى من الألحان الغربية , و انطلقت
العربات تطوي الطريق المنبسط في ظلال أشجار الصفصاف الوارفة .

أخذ حمد يتأمل بعينه و بذه نه ذلك السهل الأخضر المتموج , إنه يشبه إلى حد كبير سهول حوران و
لكن الأشجار هنا و ألوان السطوح و الجدران و كثافة الزرع و توزع الجداول و انعدام التخوم و الرجوم بين
الحقول و النظرة الأولى المفجأة كل ذلك كان يعطي لسهل البقاع في نظر حمد سحرا لم يشعر بمثله في سهول
حوران رغم اتساعها الهائل و جودة غلاتها في سنوات الخير .

و ما كادت القافلة تجتاز قرية شتورة حتى أمرت بالتوقف و التخيم , و سمح للجنود بارتياح سوق
البلدة جماعات جماعات على أن يعودوا إلى المخيم عندما تختفي أشعة الشمس عن قمة جبل الشيخ الذي كان
يبدو معمما " بالثلوج خلف سلسلة طويلة من الجبال الجرداء المقفرة إلا من بعض القرى الصغيرة المعلقة
كأعشاش النسور أو بعض قباب الأولياء البيضاء .

و في المساء عاد بعض الجنود مخمورين فلم يفعل الضابط شيئا " سوى أن يوصي رفاقهم بالاعتناء بهم
, في حين انصرف الباقون إلى تهيئة العشاء و الشاي بشيء من الفتور .

و في الصباح انطلقت القافلة من جديد مصعدة هذه المرة في منعطفات متلاحقة ترتفع حتى السماء

و في الساعات الأولى بدا التعب و الجهد واضحين على الرجال و الحيو انات جميعا" , حتى راحت
العربات نفسها رغم ضآلة حمولتها تصرّ و تئن أننا " متلاحقا" , و بدت الوديان سحيقة رهيبة و القمم تزداد
شموخا" إلا أن الطريق كانت تؤنسه بين الحين و الحين قرية قريبة أو باقة من أشجار حقل يتماوج زرعه أو
سيارة تهدر ببطء , أو فلاح خلف حماره ينشد أناشيدي أبو الزلف و الميجنا .

و عندما وصلت القافلة ظهر البيدر كان العرق يتصبب منها رغم النسيمات الباردة و القارسة أحيانا"

و تابعت السير بعد استراحة قصيرة و بدأت تنحدر قليلا على حافة الوديان و عند الأصيل كانت
تتوقف في فسحة من الأرض ضيقة يحتضنها الجبل و تندرج حولها السفوح مكسوة ببعض البساتين و الزروع , و
تنفرج زاوية منها لتطل على غابات هائلة من الصنوبر تتناثر في ظلالها عشرات القرى بقرميدها الأحمر و
سطوحها المتباعدة , و طرقاتها المتعرجة .

شدت الأوامر للإحتراس من البرد , و الثلوج تبدو من ثنايا الوديان كثيفة و قريبة في حين كانت
الجداول تتفرق تحت أقدام المخيم و تهدر في شلالات صغيرة متعددة و متلاحقة .

حاول حمد أن يستعيد الصور الغربية الرائعة التي مرت أمام عينيه في ذلك النهار إلا أنه أحس بأنه
يستسلم إلى النوم الهادئ استسلام الطفل .

و مع شروق الشمس استؤنفت الرحلة , في جو شاعري لم يسبق لحمد أن تمتع بمثله في يوم من الأيام

وديان متقاطعة تكسوها الخضرة حتى قمم التلال , و سفوح متدرجة و مياه متدفقة و قرى على غاية من الجمال و النظافة و وج وه باسمه وردية , و جبال تسد الفضاء ببياض قممها العاجي و تحت أقدام الأفق البعيد امتدت زرقة السماء و لكنها ليست منها . . . انه البحر . . .

آه , كم كان شوق حمد كبيراً " لرؤية البحر , أما بيروت فقد كان يتصورها مدينة مثل دمشق , فلم تكن لذلك تثير في نفسه ذلك الشوق العارم .

و في الطريق إلى بيروت كانت القرى تتقارب و تتباعد , و يتصل بعضها ببعض تنتثر حيناً باقات من ورد على رؤوس التلال بين المظلات الصنوبرية الخضراء المتشابكة , و تتجمع أحياناً " متدرجة فوق السفوح أو على شفير هاوية سحيقة , أو في أحضان الوديان الضيقة بين مساطب التوت القزم , و حقول القمح الضيقة النادرة و كان الناس يبدون في أزياء شبيهة بالأزياء التي تعود حمد أن يراها عمائم و مناديل بيضاء , و سراويل , و طرايش , و قبعات . . . إلا أنه استطاع أن يلاحظ أن الناس هنا يبدون أشد اهتماماً " بمظهرهم و أكثر بشاشة .

و تذكر حمد أن والده عباس أبو ذياب قد هجر قريته وهو في مثل سنه للعمل في حوران حجاراً , و أن الظروف و المهنة جعلته يستوطن السويداء و يبني لنفسه فيها بيتاً " متواضعاً" و يسلو مع الزمن أهله و قريته المطلة من بعيد على بيروت .

و لم يحاول حمد أن يتعرف إلى قرية والده و أجداده , فلا نظام القافلة يسمح و لا هو أحس إليها بحنين المهاجر العائد .

و في المساء كانت القافلة تدخل الثكنة بعد أن تأخرت قليلاً " لإصلاح بعض عرباتها و أعطى الجنود حرية التجول , بلا سلاح في المدينة , منذ الصباح الباكر و حتى التاسعة مساء دون أي تفصيل ذي أهمية .

كان الموح يتدافع على أقدام الصخور الخشنة و يندفع رذاذاً " من بين ثقوبها عندما وقف حمد بعيداً" يرقب حركاتها في اهتمام و بشيء من الوجل .

كم كان يتمنى أن يجلس على صخرة من تلك الصخور الناتئة يغمر قدميه بالماء و يسبح بنظره حتى الأفق حيث تختلط السماء بزرقة الماء المتموجة .

لم يكن حمد جباناً" و لكنه أحس بأنه لا يملك الشجاعة الكافية حتى على الاقتراب من صخور الشاطئ , و فضل أن يبتعد و أن يتابع مسيره نحو المدينة و عيناه تلاحقان حركات الموح التي لم تكن تهدأ و بعض الطيور الكبيرة البيضاء و المراكب التي كانت تبدو في عرض البحر .

و أعجبه منظر رجل يقف على رجل واحدة , أحيانا" تغمر المياه المتدافعة قدمه العارية و إلى جانبه سلة من القش , و في يده قصبة طويلة تدلى من رأسها خيط يلمع تحت أشعة الشمس و يرفع بين الحين و الحين سمكة تتراقص في الهواء ولا تلبث أن تغيب في قعر السلة .

و أدهشه صبية يلبسون شيئا " ضيقا" يسترون به عورتهم و يقفون فوق خشبة قلي لة الارتفاع يقفزون , أقدامهم في الهواء و أكفهم المضمومة تشق سطح الماء, في حين تمدد بعضهم يستريح فوق تراب أصفر لا يعلق بالجسم و لا يلوته .

و قاداته قدماه إلى الميناء فاتكأ على حاجز خشبي زمنا " لا يدري كم طال , و راح يتأمل البواخر الضخمة و المراكب الخشبية و الأعلام و تلال الفحم الحجري و الشبان ذوي البدلات البيضاء و الأشرطة الزرقاء و الآلة الضخمة التي كانت تحمل من المراكب إلى عربات القطار الجاثمة تحتها صناديق كبيرة قد لا يستطيع عشرة رجال أن يزحزحوها , وظل يفتش بعينيه و بذنه عن الطريقة التي تعمل بها هذه الآلة حتى اهتدى إلى قفص حديدي في أعلاها شاهد من خلال كوته الزجاجية رجلا" جالسا يحرك أذرعة من حديد .

ولكنه لم يطق البقاء رغم ميله الشديد للبقاء فقد كانت الروائح المنبعثة من الميناء لا تشجعه على المكوث وقتا" أطول , فعاد يتسكع في أسواق المدينة و شوارعها بلا هدف و بلا اهتمام .

و عندما وصل إلى الثكنة بعد أن استدل مرارا" , كان جائعا" متعبا" , فأكل بسرعة و شهية و استغرق في نوم عميق في حين كان رفاقه يتوافدون بين مخمور متعتع أو طرب مترنح أو مغامر معصوب الرأس .

* * *

توقفت في اليوم الثاني عربات ثلاث أمام بناية ضخمة , و أمر الجنود الثلاثة بالنزول إلى القبو البارد المظلم الممتد تحت جزء كبير من البناية .

و كانت تنبعث من القبو رائحة الخمور تكاد تدير الرأس و يزيدها عبقا " الأبخرة المتصاعدة من الدرج الواسع المنحدر نحو الظلام و قد بلله النبيذ المعتق .

- احمل ...

صرخ السرجان ذو الوجه الأحمر و القامة القصيرة المكورة كأنها واحد من مئات البراميل المكدسة .
و هز حمد رأسه علامة الرفض دون أن يتحرك و دون أن ينبس بكلمة .

- احمل ...

و أشار إلى برميل النبيذ في حركة عصبية ظاهرة .

و ظل حمد جامدا" كالتمثال .

- احمل ... خنزير ...

و أحس حمد بأن الأرض تميد تحت قدميه و أن الدم قد تحول إلى جمر في عروقه و أن الدنيا قد غامت في عينيه .

و في وثبة جنونية كان يجثم على صدر السرجان و هو يستل خنجره المجدلاني الذي لم يكن يفارقه , فتلمع بسمة الموت في نص له الرهيب , غير أنه بوعي أو بلا وعي رمى بالخنجر بعيدا " بين البراميل المقدسة فانطلق كالكوكب الهاوي في ليلة شفافة الظلام , و عاد يشد بركبتيه فوق الصدر المتزاحي و الساعدين المرتجفتين .

- نعم أنا شهرت الخنجر على السرجان و ليس صحيحا" ما يدعيه بأنه هو الذي قذفه من يدي , لقد أهانني مرتين , مرة في محاولة لإرغامي على حمل مشروب محرم في مذهبنا و مرة ثانية بشتمي .
و تداولت المحكمة , و كان الحكم بعد التخفيف السجن لمدة سنة .

اقتيد حمد بين اثنين من شرطة الجيش , ذوي القبعات السوداء الاسطوانية إلى عربة مغلقة , و عندما فتح بابها الخلفي , وجد السجن الشاب نفسه في باحة واسعة تحيط بها الأسوار العالية المعدومة الكوى تنتصب وتتدلى فوقها جبال و أكوام من الشريط الشائك يرتفع بينها من مسافة إلى أخرى محرس خشبي يطل من كوته الضيقة رأس تجمد و حربة طويلة تسمرت بلا بريق و على الأسطح كان يتنقل في حركة بطيئة حراس آخرون تتوهج حراهم في أشعة الشمس الدافئة .

جرّد من حزامه و انتزعت أربطة حذائه و سيق إلى ما يشبه المهجع الواسع و عندما أغلق خلفه الباب الحديدي وجد نفسه وجها " لوجه أمام عدد من الأسرة الحديدية الضيقة يرقد فوقها بعض الجنود بينما كان زملاؤهم الآخرون ينظرون بلا استغراب إلى القادم الجديد .

لم يسلم على أحد ولم يتدبره واحد منهم بالسلام و تقدم و كأنه يسير في الحلم نحو سرير رآه فارغا " فارمى فوقه و هو يغالب دمعة محرقة اضطر أن يمسحها خفية بطرف كفه .

و عاد العشاء الذي قدم إليه دون أن تمسه يد , و ظل و هو ممدد يعد دقائق الساعة البعيدة الكبيرة و يستمع بلا اهتمام إلى هدير الأمواج .

و عندما كانت الديوك تعلن تبشير الضياء كان هو لا يزال ممددا "ساهرا" فوق فراشه و كأنه قطعة من خشب .

و أخذ واحد من المساجين يحاول إخراجه من صمته .

- من أنت ؟ لماذا جاؤوا بك إلى هنا ؟

و رويدا " رويدا" أخذ لسان حمد ينطلق متكتما " متجاهلا" في بادئ الأمر إلا أنه سرعان ما انطلق يروي لزملائه أكثر مما كانوا يأملون أن يعرفوه , كانوا ثمانية و هو التاسع كلهم عرب من شمال افريقيا أو من سورية إلا واحدا" يبدو من سحنته أنه من الشرق الأقصى و كان رفاقه يتبادلون مهمة الترجمة بشيء من المشقة و يستعينون بكثير من الحركات تعويضا" عما يعجزون عن إفهامه لجهل متبادل بكثير من المفردات و التعابير .

و بدأ حمد يأنس إليهم و يأنسون إليه , و مع ذلك فإنه كان يشعر دائما" بأنه مظلوم و أنه لم يتعود و لا يستطيع أن يتعود هذه الحياة الكسولة المتراخية المحرومة من نور الشمس و الهواء و الحركة و المرح . . .

و كانت أشد ساعات سجنه ضيقا " و مرارة" عندما كان يرغم على حمل نفايات السجن في براميل حديدية ضخمة يلقيها في عربات الزبلة , و هو يرتجف غيضا" مخوقا" .

و مرت الأيام و بدأ يزداد شحوبا" , بدأ لونه الأسمر يبهت شيئا" و شيئا" , و ضاعت معالم الزمن , فلم يعد يذكر من أيام الأسبوع غير يوم الأحد إذ تمنح فيه فسحة أطول للتنفس و تجمع الثياب للغسيل .

و أحس بالشتاء يقترب فقد كانت الغيوم تتراكم في السماء و المطر ينهمر غزيرا" في فترات متقطعة , إلا أنه لم يستطع أن يصدق أن يكون الشتاء بهذه النعومة , فلا البرد قارس و لا الرياح عاصفة تلسع و تدوي و لا السماء دائمة التجهم غير أن هدير الأمواج بدأ يعلو و يزأر بلا انقطاع .

كانت غرفة سجنه تستقبل بين الحين و الحين ضيفا " جديدا" أو تودع واحدا" أو أكثر غير أن حمد أخذ يلاحظ أن عدد السجناء بدأ يتزايد وأن بعض الأسرة قد أبدل بأسرة ذات طبقتين و أن الحراسة ازدادت تشددا " و فسحات التنفس بدأت تتباعد و تختصر .

و تساءل حمد مرارا " بينه وبين نفسه لماذا لم يسأل عنه أحد من أهله ؟ و لم يصدق الأجوبة التي كان يسلي ضيقه و ألمه بها , فإن السجن لا يخلو من وقت لآخر من زائر يحمل هدية أو يلقي نظرة على قريب له من خلف الحاجز الحديدي السمج .

بدأ يقلق و بدأت الهواجس ترسم في ذهنه صورا" كثيبة مشوشة و لم تزدها الأيام إلا تشويشا" و كآبة .

و سمع بعض السجناء الجدد يتحدثون في شبه همهمة و أحس حمد بالفضول لأول مرة فسمح لنفسه أن يقترب و أن يسترق السمع , لقد كان المحدث يردد كلمات يألفها و إن هو لم يستطع أن يفهم لأول وهلة , موضوع الحديث :

- كانت القلعة عندما أقبلنا عليها لا تزال تحت الحصار الشديد و الدخان و اللهب يرتفع عاليا" فوق أبراجها و أسوارها , و طلقات النار و تفجر القنابل يدوي في أرجاء الوادي .

كان الثوار يهاجمونها من جهة واحدة من جهة البلدة , بعد أن استحال عليهم مهاجمتها من جهاتها الثلاث الأخرى المبنية فوق صخور الوادي السحيق , خرقوا جدران البيوت الملاصقة للأسوار و نصبوا السلام و تدافعوا فوقها واحدا " إثر واحد و هم يهزجون بألحان جافة غريبة , و يرمون القنابل اليدوية و يغمسون اللحف بالبتزول و يشعلونها و يقذفون بها السقوف الخشبية فتسمع لها من بعيد فرقة رهيبة يزيد بها النار و الدخان هولاً" و رعباً" .

دافعت الحامية دفاع المستميت و كانت على وشك الاستسلام عندما أقبلنا و عندما بدأت المدفعية و الطائرات تدك صفوفهم دكا" فانسحبوا .

و هنا أشعل المحدث الشاب سيجارته و أشار إلى حمد بالاقتراب عندما شعر مثلما شعر رفاقه الآخرون بأن كلمة واحدة من الحديث لم تفتته .

- انسحبوا في فوضى حتى أنهم لم يتمكنوا على غير عاداتهم من حمل قتلاهم و جرحاهم , و جاء بعض رجال البلدة يقدمون خضوعهم للقائد و كان بينهم بعض الشيوخ و أشار القائد إلى بضعة رجال منهم , ساقهم الجند إلى ساحة القلعة و سمعت على الأثر طلقات نار عرفنا بالسليقة أن حكما" بالإعدام قد نفذ .

و أمر الأهالي بجمع القتلى من الجانبين , و كانوا كثيرين , و لكان منظرهم رهيبا" حتى أنني أحسست بالغثيان , إلا أن واحدا" كان أشدها وقعا" في نفسي فقد أسرع بعض الجنود ينتزع ساعة من صدرية شاب تكوم على قدم أحد السلام و كان الشاب غ ريب الزي يلبس قنبازا " أبيض مخططا" و شعره الأسود الفاحم يرتقي فوق منكبيه و عندما رفع الجندي الساعة كان الدم قد تجمد في الثقب الذي أحدثته الرصاصة القاتلة .

شهق حمد شهقة مكبوتة و أحس بقلبه يهبط و يتوقف , و خيل إليه أن ركبتيه ترتجفان و أن فمه قد جف , وراح العرق باردا" يتصبب من جبينه .

لم ينطق بكلمة و لم يطلب أي إيضاح و اكتفى بأن يتقبل لأول مرة سيجارة تناولها بشعور أو بلا شعور و لم يمر بخلده على الإ طلاق أنه ينتهك بذلك أعراف بلاده , فقد كانت الصدمة مفاجئة صاعقة و راح ينفث الدخان في حركات واضحة الاضطراب و هو يجهد في إرسال دمعة محرقة تجمدت بعناد في مآقيه .

و في ذلك السكون الرهيب تحركت شففتا حمد و سمعت همهمة كأنها قادمة من عالم آخر

، غدا" ... دماء , و خراب , و تشرذ ! ...

الفصل الرابع

-- استيقظت المهاجع في السجن العسكري ذات ليلة على حركة غير عادية , و عندما بدأت أجراس المدينة ترحب بالعام الجديد , سرت كالتيار الكهربائي وشوشة اهتزت لها القلوب فرحا " :

عفو عام ...

و في الصباح الباكر كان الرجال يخرجون من المهاجع لتنقل كل فريق منهم سيارة عسكرية تنطلق إلى إحدى الثكنات التي ازدادت عددا" و اتسعا" خلال الأشهر القليلة الأخيرة .

أخذ حمد يستعيد لونه و نشاطه و بعض تفاؤله و هو ينتظر دوره للالتحاق بفرقته الجديدة بدمشق و ظل نظره طوال ساعات فراغه معلقا" بأمواج البحر دون أن يسمح له أو لغيره بالاقتراب منها أو من المدينة , فقد كان الجيش منذ منتصف الصيف الماضي في حالة حرب حقيقية .

و انطلق حمد في رتل طويل من الجنود المغاربة يدقون شوارع المدينة المقفرة بأحذيتهم الضخمة نحو المينا و توزعوا على عربات قطار صفر صفرة طويلة و انطلق في سكون الليل ينفث نارا" و دخانا" .

سار متمهلا" ثم انطلق في سهول بيروت إلا أنه سرعان ما بدأ يتباطأ و أخذ لهائه يزداد تسارعا" وحدة و هو يتسلق السفوح زاحفا" متشبثا" بالأرض و عرباته تصطك و تتمايل و تترنج و الجنود بين نائم يتراقص رأسه فوق صدره أو ساهر يهتز اهتزاز أوراق الخريف .

كان السفر مملا" مزعجا", و القطار كثير التوقف إلا أنه لم يحدث له من المضايقات المرتقبة غير بضع طلقات نارية عند مشارف دمشق جرحت بعض الجنود و حطمت بعض النوافذ .

وزّع الجنود الجدد على المعسكرات الكثيرة المنتشرة حول المدينة , و هنا أدرك حمد معنى ال عفو : إنه استخدام لكل القوات العسكرية حتى السجناء لتغذية الحرب التي بدأ يعرف عنها بعض الخطوط الكبرى . و تعرف في معسكره الجديد على جنود من أبناء بلده كان واحد منهم مثله في السجن و الثلاثة الآخرون كانوا في مخافر الحدود التركية شمال الاسكندرون .

و بدأت فكرة الهرب إلى الجبل تراود أذهانهم و أسر بعضهم لبعض و مروا ب أيديهم على شاربهم يقسمون على الكتمان و اتفقوا على خطة .

سار القطار من دمشق متجها " نحو الجنوب و عرف الجنود جميعا " أنهم ينقلون إلى درعا مركز التجمع لحملة الربيع المقبلة ، و لم يكن الأمر سرا" .

و بعد أن اجتاز القطار محطة المسمية حيث مجموعة كبيرة من المخيمات العسكرية توقف قليلا " بانتظار إصلاح السكة الحديدية التي كان الثوار قد نسفوا بضعة أمتار منها في الليلة الماضية , و عند الأصيل كان يقف قليلا" في محطة أزرع حيث انتصب مخيم محصن واسع , و من ثم بدا الليل البارد القاتم يخيم بسكونه المزعج على وجوه الجنود الذين كانوا أشد سكونا" و فرعا" و هم يقتربون من أرض لا تزال تعبق برائحة الدم و البارود و الدمار .

- تباطأ القطار ثم توقف في قرية صغيرة لم يل مح فيها بصيص من نور إلا فانوس ألماني يتجول بين العربات و ضوءه يتراقص خافتا " في الظلام الكئيب . و عندما كان يتحرك منطلقا " ببطء كان أشباح خمسة يتسللون منه و ينطلقون نحو الشرق الذي كان يحدده بوضوح انسياب القطار المتسارع باتجاه الجنوب .

و انطلق صوت يشبه عواء الذئب مرة تلو مرة و كانت تلك إشارة التجمع, و همس أحدهم :

- البواريد تحت المعاطف يا شباب .

و كان عناق خاطف و تمتمات : الحمد لله بالسلامة ... توكلنا على الله

وسار الأشباح الخمسة في صمت شامل فوق أرض رط به لزجة زادت أحذيتهم الضخمة ثقلا " و في سكون ظلام قارس مفزع .

و بدأ المطر ينهمر رذاذاً " تتخلله بين الحين و الحين رشات سمحة و انحباس مؤقتة .

و ازداد مسيرهم ثقاقلاً " كلما تقدموا و لكنهم لم يتوقفوا لحظة و لم يلتفتوا مرة واحدة إلى الوراء , و استمروا في سيرهم الأعمى بلا تردد أو تساؤل نحو الشرق أو نحو ما يظنون أنه الشرق .

كانت ثيابهم قد تبللت و أقدامهم المثقلة بالطين اللزج قد بدأت تتراخى و دقائق قلوبهم تتسارع بغير انتظام عندما لاحت تباشير فجر ضبابي , ما لبث أن ازداد ضياؤه وضوحاً " و بدت معه معالم الأرض في مزيج غريب من غموض و جلاء .

توقف الأشباح و راحوا يتشاورون و يتساءلون في همس غريب مرتجف , و أشار واحد منهم إشارة لا تنم عن فرح عامر و لكنها لم تكن توحى بخيبة الأمل المريرة .

فقد بدا خلف الضباب المتح رك شبح قرية تتسلق سفوح تلة ضئيلة يحرسها بناء منفرد يرتفع فوق هامته صليب زاده ضوء الفجر المنبثق وضوحاً " و روعة .

لم يكن لدى حمد و اثنين من رفاقه أدنى شك في أنهم في أراضي قرية خربا , أما الآخرون فقد لزموا الصمت

و دارت مناقشة سريعة لمجابهة المفاجئة التي لم يحسبوا لها أدنى حساب .

- قد تكون القرية محتلة , و قد يكون أهلها غير موالين للثورة , فقد كانت معلوماتهم عن هذه التفاصيل لا تستند إلا إلى شائعات طائشة .

و في سرعة حازمة اتفقوا على أن يختبئ أربعة منهم في أي مكان صالح لإخفائهم و يتقدم الخامس بلا سلاح يروود القرية , فالبارودة في مثل هذه المناطق المهجورة و في مثل تلك الفوضى العارمة , مطعم مغر و قد تودي بحياة صاحبها .

لم يتأخر حمد في التأكد من أن القرية خالية من أي قوة فرنسية و قد أكسبته الجندية خبرة كافية لمثل هذا الغرض , و سرعان ما قرر أن يدخل القرية هو و رفاقه فإن وجدوا ال ترحيب كان خيراً " و إن حاول الأهلون مقاومتهم فإنهم لن يستسلموا و لم يكن لديهم أي حل آخر فالأرض حولهم كانت مكشوفة فلا هم يحتملون مسيرة أطول و لا ثيابهم المبللة و جوعهم الشديد يسمح لهم بالاختفاء طوال النهار البارد المطير في بطن الأخدود الرطب .

و أشار إليهم فتقدموا جميعاً " , جنود خمسة بطرايشهم الحمراء التي زادها المطر تهدلاً " و معافهم المبللة ذات الأزرار الواسعة و بنادقهم الفرنسية الطويلة التي اضطروا أمام الخطر المحتمل المقبل أن يتأبطوها , و من ثم تقدموا متباعدين و لكن في خطوات واحدة و يدهم على الزناد .

و تراكض بعض شباب القرية يتخذون من سطوح المدارس متاريس لهم , و سمعت نداءاتهم تنتقل من سطح إلى سطح :

- لا تطلقوا النار ، خذوهم أسرى .

عندئذ رفع الجنود أسلحتهم و لوحوا بها في الهواء ، إشارة الولاء و المودة ، فتقدم للقائهم شاب أسمر في مثل سنهم عرفوا فيما بعد أنه ابن زعيم القرية عقلة بك الشديد التعلق بالبasha و المتحمس لثورة الاستقلال و الحرية .

أشعلت النار ، و ارتفع دخانها في سماء المضافة الواسعة المزدهمة بالشباب و البنادق ، و بدأ الدفء يسري في العروق التي بدأت تتجمد كأروع ما يكون الدفء ، و أديرت القهوة المرة ، و قدم الفطور ، تتوسطه صينية واسعة من الكشك ثم ترك الضيوف لوحدهم يجفون في ابهم على لهب الجلة و يغرقون في نوم هنيء .

و عندما استيقظوا وجدوا إلى جانب كل واحد منهم بعض الألبسة المحلية فقد كان خطرا " عليهم أن يتجولوا في المناطق الثائرة بزياتهم العسكرية ، و طرابيشهم الحمراء .

و عرف حمد من أهل القرية و من الرجال الكثيرين الذين صادفهم في طريقه بأن أهالي السويداء نقلوا عائلاتهم و مواشيهم ، و بعض غلالهم و أثاثهم إلى الجبال بعيدا" عن خط النار .

اقترب حمد من المدينة و هو ملتئم و بندقيته في كتفه ، و لم يصدق لأول وهلة ما سمعه ، فقد كان الرجال في مشارف المدينة يروحون و يجيئون ، بنادقهم في أكتافهم أو في إيمانهم و أجندة الرصاص تتقاطع فوق صدورهم ، و في عيونهم بريق لم يعهده من قبل : مزيج من التصميم و القلق .

و توغل في أزقة المدينة فإذا هي مقفرة خالية .

- الماء يتدفق من نو افرها صافيا" ، لا جرة تلمع و لا منديل أبيض شفاف أو تنورة واسعة ملونة تتماوج ، و الأبواب موصدة إلا أقلها ، لا ثغاء و لا خوار و لا جناح يرف ، و لا ولد يلهو ، و لم يكن يخفف من رهبة هذا الفراغ الرهيب الكئيب غير حلقات الرجال حول نار السنديان اللاهبة و خطوات بعض الشبان ينتقلون بصمت جنازي بين أحياء البلدة الخاوية .

عرف كثيرا" من أبناء بلده و لم يسمح لأحد أن يعرفه إلا أنه استطاع أن يدرك من الوجوه و الأزياء المختلفة و البيارق المتعددة التي مرت به بأن التعبئة العامة في الجبل قد أعلنت .

دق الباب دقات متلاحقة عالية و وثب إلى الباحة دون أن ينتظر الجواب .

كان أبو حمود قد تقدم بضع خطوات و وقف يتفرس في القادم الغريب ، و سرعان ما غاب الرجلان في عناق طويل تبلله الدموع و تغمره الزفرات المتقطعة .

و أحس حمد بأن والده يطوق عنقه بذراعه اليسرى ، و عندما هم أن يقبل اليد المخبأة تحت الفروة القصيرة قفز مذعورا" مرتجفا" فقد كانت الذراع متصلبة كأنها قطعة من سنديان .

و لم يحاول حمد أن يسأل عن حمود فلو كان حيا " لكان إلى جانب والده و هل يمكن أن يكون الشاب ذا الشعر الأسود الفاحم المنسدل فوق الكتفين و القمباز الأبيض المخطط الذي تركه رفاقه مكوما " تحت أسوار قلعة الشهابيين في راشيا سوى حمود . . . و جلس أبو حمود يقص على ولده قصة الثورة .

كثرت يا بني المظالم , سخرة , غرامات , إهانة , تكسير أحجار في الساحات العامة , جاسوسية , استعباد , و استبداد , حاكم أجنبي , . . . حاول زعماء البلاد التفاهم , لم يلاقوا إلا الاستخفاف و النفي إلى أقصى البلاد إلى الحسكة و لم يبق أمامنا إلا السيف . . .

ذبحناهم في الكفر , في أقل من ساعة , و ذبحنا الألوف منه م في المزرعة و كسبنا المدافع و الرشاشات و الذخائر . . . و كل أنواع السلاح .

و امتدت الحرب إلى الغوطة و الإقليم و النبك و حماة و بعلبك . . . وفي المسيفرة كانت غلطة , و رائحة خيانة , حصدونا بالرشاشات , و مدافع الدبابات و الطائرات و مع ذلك لم نتراجع فدخلنا البلد في وضح النهار ندوس جثث رفاقنا و نتخطى الأسلاك الشائكة و نخطف السلاح من أيدي الجنود في الخنادق .

و لكن الخسائر كانت كثيرة و الأرض مكشوفة لم تستطع النجدات أن تصل إلينا انسحبنا مع المساء و القتلى في الأرض و القليل من الجرحى أمكن إنقاذهم , و في اليوم الثاني كان الدخان من سهل المسيفرة يرتفع إلى السماء . . . أحرقوا كل من وجدوه في الأرض . . . كل من وجدوه .

أجج الشيخ النار التي بدأت تخبو و تابع حديثه و هو يمسخ بين الحين و الحين الدموع السخية المتدفقة من مآقيه :

- حمود مشي مع حملة الإقليم , كان أول من نصب السلم على سور القلعة . . . و هنا أحس الوالد بأن حنجرته تحترق فتناول الطاسة الكبيرة يغب منها الماء و الدمع معا " في حين استرسل حمد يجهش بالبكاء , وهو يتمتم و يصرف بأسنانه .

لعينيك يا حمود أبشر بالثأر . . . ابشر . . .

و مع طلوع الفجر كان رجلان يخرجان من بيت أبي حمود شيخ و شاب ملتئم و وجهتهما قرية قنوات القريبة من المدينة .

استقبلت أم حمود ولدها العائد بمأتم ضخم اشتركت فيه كل نساء القرية , ندابة تندب بطولة حمود و شبابه , و النساء المتربعات على أرض الباحة المكشوفة الواسعة يرددن بصوت حزين رتيب و هن يكفكن الدموع بأطراف مناديلهن , و من بطولة حمود تنتقل الندابة تنوح على الرجال الذين سقطوا في الحرب و تنشر مكارمهم واحدا " واحدا" . . . و في حركة خاطفة ودّع حمد أمه , و ألقى من بعيد ,

و من طرف عينه نظرة شوق إلى العروس التي كانت تعصب رأسها بقطعة من قماش أسود و تسترق نظرات الإعجاب إلى الشاب الذي أحبته .

لقد كان العدو يقترب من السويداء ، و واجب الدفاع وحده كان يهيمن على مشاعر الناس و يحدد سلوك الجميع بلا هوادة . . .

و في المساء كانت النيران تشتعل في قمم جبال حوران . . . كل القمم . . .

و ذلك يعني أن الحرب قد بدأت . . .

استطاع العدو الزاحف من درعا أن يوهم الثوار بأنه متجه في آن واحد نحو صلخد و السويداء و بذلك تمكن من تجميد بعض القوى في طريق صلخد أو تعويقها عن الاشتراك بالمعركة في الوقت المناسب . . . تقدمت إحدى الحملتين إلى المجيمر و عرى ثم انكفأت نحو رساس - السويداء لتساند الحملة الرئيسية المتجهة نحو المدينة .

كانت خسائر حملة عرى - رساس كبيرة و شجاعة الثوار ا لذين لاحقوها لا توصف و لكن الحملة تمكنت من أن تتقدم وتؤمن مهنة الحملة الثانية التي بدأت مدفيعتها تدك خطوط الدفاع الأمامية دكا " في حين كانت قنابل الطائرات تزلزل الأرض و تملأ الفضاء سحبا " عالية من دخان و غبار و رذاذا " من أشلاء و حجارة و دماء . . .

ثبت الثوار في مواقعهم ثباتهم الذي اشتهروا به في تاريخهم الحربي الطويل و استطاع المدفع الذي غنموه في المزرعة أن يخلخل صفوف العدو إلا أن انفجارا " هائلا" دوى من المكان الذي كان جاثا " فيه ، و شوهد اللهب و الدخان و أشلاء شخص ترتفع في الفضاء و بدأت ميمنة الثوار تتزعزع فقد اختفت بعض البيارق و شوهدت و هي تنسحب نحو الشمال ، و بدأ فكا الكماشة ينطبقان على الثوار من الشمال و الجنوب .

تشبث المدافعون الأشداء بكل جدار ، بكل صخرة ، بكل زاوية منزل متطرف ركع بعضهم في الأرض العراء ، و هم يطلقون النار ، و انتضى شاب بعد آخر خنجره يلوح به في الفضاء ، و قد نفذت ذخيرتهم .

دفن كثيرون خلف الجدران و الصخور التي اتخذوا منها متاريس ، و تراجع البعض و هم لا ينقطعون عن إطلاق النار يقفزون من صخرة إلى صخرة في دفاع يائس مستميت ، و ثبت كثيرون و شوهدت الدبابات تسحقهم في تقدمها البطيء الهادر .

و عندما أيقن الثوار أنهم لن يستطيعوا فك الطوق الذي بدأ يضرب من حولهم تراجعوا وهم يدافعون بضراوة و يأس من بيت إلى بيت و من زقاق إلى زقاق ، و انطلقوا يهيمنون على وجوههم في حقد و مرارة بين أحراج السنديان و في بحر من الحجارة و الصخور نحو الجبال العالية ، فرادى و جماعات و قد تخلى الفرسان عن خيولهم للجرحى الكثيرين و تسللوا في الشعاب تطاردهم المدفعية ، و تلهو باقتناصهم طائرة بعد طائرة .

لم يستطع أبو حمود أن يحمل البندقية ، فقد تحطمت يمينه في المسيفرة ، و لكنه استطاع أن ينخي الرجال و أن يحثهم على الثبات و هو يدور عليهم بالماء ، يحمل ذخيرة قتيل إلى جار بدأت ذخيرته تنفذ ، يعصب الجراح بالكوفيات و شاش العمائم و لا ينقطع لسانه عن ذكر الله إلا ليصرخ مشجعا " .

- عفي النشاما , عفي , اليوم و لا لك يوم ...

أما حمد فقد صمم على أن لا ينسحب , على أن لا يهرب , ثبت فوق سطح يطل على (السورية) , طالما قفز منه إلى الماء لاهيا " ,رمى فسقط الضابط المتقدم على رأس فصيلة من جنوده استدار الجنود و هربوا إلى زقاق آخر , و برزت فصيلة ثانية و سمع صرخة تأوه ثم صوت جسم يسقط من مكان عال قبالة , ثم آخر و ازداد تدفق الجنود و تسارعهم في اتجاه الشرق , لم يكونوا يتعقبون الثوار المنسحبين بقدر ما كان الخوف و الفزع و الموت يطاردتهم في أزقة البلدة الترابية المعرجة .

و عند الظهر كانت القوات تدخل القلعة و أبوابها تدوي بين الطلقات المتقطعة و دوي القنابل المتباعد .

ساد المدينة الخالية الخاوية سكون رهيب , و خيم عليها جو من الكآبة و مرارة الهزيمة و خيل إلى حمد أنه لا ينظر إلى مدينة مغلوبة و إنما إلى فتاة عزيزة عليه تطأطئ رأسها بذل في أعقاب عار فاضح .

و بدأت سحب الدخان و ألسنة اللهب ترتفع في أنحاء متفرقة من المدينة و أحس حمد أن الجيش ينتقم من المدينة الباسلة الشديدة العناد و الكبرياء , و أن دوريات تنظيف البلدة من الجرحى و القتلى بدأت تتجول , فاضطر إلى الاختفاء لأنه لم يشأ أن يموت رخيصة" , و عند المساء كان ينطلق في أحراج هجرتها وحوشها و راحت تطلق عواءها الكئيب المفزع في أجواء المعركة الرهيبة الهامدة .

الفصل الخامس

كان الخامس و العشرون من نيسان 1926 ذروة النضال الثوري المسلح , فقد كان لسقوط السويداء و الخسائر المتلاحقة بين رجال الحرب , و الدعاية الانهزامية يروجها العملاء , و للشهور العشرة من القتال الضاري غير المتكافئ , و لحصر الثورة في الغوطة و الجبل , كان كل ذلك و غير ذلك , كافيا" لتحويل المعارك الحربية المقبلة إلى حروب عصابات تغيّر و تختفي , تضرب و لا ترمح للقوات النظامية أن تضربها ...

كان هم الثوار الأول أن يبتعدوا بعائلاتهم عن الحملات العسكرية التي ستنتقل من السويداء باتجاه الشمال و الجنوب , فكانت اللجاة , المنطقة الصخرية الواسعة التي يستحيل على الآليات أن تعمل فيها و التي تحتوي على عدد كبير من الكهوف و الشقوق الصخرية و التي طالما لجأ إليها أبناء الجبل في حروبهم و اعتبروها قلعتهم , و كانت منطقة الأزرق الواحة الجنوبية البعيدة عن قرى الجبل المأهولة .

و لم يكن وصول العائلات و المواشي إلى اللجاة بالنسبة لقرى الجبل الشمالية و ال غربية يشكل صعوبة تذكر إلا أن الرحيل (الهجيج) نحو الشرق و الجنوب مأساة مريرة قاسية لا تزال العجائز و بعض الكهول يسردون بعض فصولها وهم يرددون من حين إلى حين :

- تذكر ما تنعاد ...

إنهم في ابتهاهم إلى الله أن لا يعيد تلك ا لمأساة برهبتها و شقائها و مرارتها يعيشون الرعب الذي لم يفارقهم حتى اليوم . . .

طفل على كتف أمه و آخر بين يديها , و بنات و أطفال يرتجفون حولها و هم حفاة في أ طمار لا تقيهم برد الربيع الجبلي القارس .

و فارس جريح منبطح على ظهر فرسه معصب الرأس و ساقه تلوح في الهواء . و رجل يحمل رضيعاً" و هو يصرخ بأعلى صوته :

لمن هذا الولد يا حريم ! . . .

إنه رضيع هربت أمه مذعورة من قذائف الطائرات المفاجئة و نسيته حيث كانت تس تريح من عناء الطريق المصعد القاسي المغطى بالشوك و الصخور , و مجموعة من النساء تحلقن في العراء بقلق و ابتهال , حول امرأة جاءها المخاض فتهاوت وهي تتلوى بمزيج من الألم و الذعر.

و على بضعة خطوات كان رجلان منهمكين في تقليب كومة ضخمة من الحجارة لتواري عن أنياب الضباع جثة لم تزل تختلج .

و خرج يتدلى فوق ظهر حمار تعتليه عجوز عمياء و يطل من جانبيها و من فوهة الخرج آلة خياطة يدوية من جهة و من الجهة الثانية رأسان لطفلين يتموج شعرهما الأسود في الهواء و قد احمر أنفهما , و دمعت عيناهما من البرد .

و على ظهر جمل أثاث البيت : أغطية و فرش و طحين و سجاد . . . و تدلت على جانبيه و عنقه الطناجر و بضع دجاجات , و هو يكاد يجن من حين لآخر كلما أزت طائرة أو قرقعت طنجرة .

الشعاب العالية تسيل بمواكب مهزومة مذعورة , نساء و أطفال و صبايا و جرحى و عجزة ثكالي و ايامي و حبالى و م رضعات , و شيوخ يتسللون بين النحيب و الأوجاع و الدموع , و الخوف و الجوع والبرد و الذعر المفاجئ , يحرسهم بعض الرجال المسلحين .

أما الرجال الآخرون فقد قتل أكثرهم في معارك السويداء و الغوطة و جبل الشيخ و راشيا أو شوّهوا تشويهاً" أقعدهم عن حمل السلاح أو تفرقوا في الجبال عصابات عصابات تضرب ضرباتها الأخيرة في عناد يائس .

و في الرابع من حزيران كانت قلعة صلخد تسقط تحت ضربات مدفعية العدو الزاحف .

و في هذه الأثناء رفع شاب وسيم الطلعة لبناني اللهجة يده عالية , في أحد الشعاب الشرقية من الجبل و صاح :

- من يريد أن يتبع عادل النكدي للجهاد في الغوطة .

و انطلق فوق جواده العربي الأشقر يحف به عدد من الفرسان يحدون و يهزجون :

يا فرانسوا والله ما نطيع . . .

و في الغوطة تجددت المعارك و تجددت معها بطولات و مكارم و هيمنت من جديد روح الفداء و الاستبشار .

و لكن , ما كاد النكدي يلفظ أنفاسه بين يدي رفاقه و جراحه تنزف حتى تضععت الغوطة و شعر حمد و أصحابه بأنهم لن يستطيعوا القتال بنجاح و حماسة بعد أن سقط قائدهم و في هذه الأثناء جاء من يحمل إلى حمد خبر موت أبيه , و تحمل حمد الفاجعة بجلد واضح فقد شغله القتال حتى عن أعز الناس عليه .

و التحق حمد بالثوار المعتصمين باللجاة , ينسف الخط الحديدي و يشتبك في مناوشات خاطفة مع بعض المخافر الأمامية العسكرية و كان الطابع الرئيسي لتلك المنطقة و لتلك الفترة هو طابع الدفاع.

إلا أن حمد لم يرغب في أن يستمر طويلا " في معارك دفاعية و إن تكن ضارية عنيدة يفرضها الزمن و المكان و الإمكان فرضا" على المعتصمين بها .

أليست اللجاة قلعة ؟

كان هو يرغب أن يكون أكثر انطلاقا" و حرية في حركته , فلماذا لا يلجأ إلى الجبال يضرب و يختفي ؟ .
. لماذا لا يتصيد العدو تصيدا" , تماما" كما يصطاد الحجل و الأرناب الجبلية ؟ . . .

و كان على يقين من أنه لم يبدع هذه الفكرة , و العصابات في الجبال منتشرة و إن تكن قليلة في عددها و أفرادها إلا أنه كان يحس بأنه منساق عفويا" إلى هذه الطريقة لإرهاق الغاصب الحديث الانتصار , و من ثم للأخذ بالثأر , الثأر للبلد . . . و الأخ . . . و الرفاق . . . و الذراع التي تحولت إلى قطعة من سندان .

انطلق إلى الجبال و انطلق مع ه ثلاثة من أصحابه الشباب الأشداء , يضربون و يختفون في الكهوف و في القرى التي بدأ بعض سكانها يستسلمون , تؤويهم و تتستر عليهم .

يظهرون فجأة أمام أسوار القلعة , أو يغيرون بخته على قافلة تموين أو دورية استطلاع و في كل مرة يتسللون ظافرين , ليختفوا في الشعاب المضيافة المعقدة بالسحاب .

كان حمد و رفاقه يتسقطون الأخبار تحملها إليهم امرأة تجمع بقول البرية أو فلاح عاد يقرب المنساح بعد البندقية و السيف , و كانت الأخبار تصلهم مقتضبة إلا أنها في أكثرها صادقة و مشجعة:

في قرية أبو زريق فاجأت قطعة من الجيش (البارتيان) بعض الثوار , قتلت منهم و شردت الباقين . .

- و في قيصما , هزم الثوار العسكر و البارتيان , و في الصوخر هاجم البارتيان الباشا سلطان قتلوا فرسه , و كادوا يأسرونه لولا أنه استمات في الدفاع مع رفاقه القلائل . . .

- في اللجاة قام البارتيزان و الجيش بهجمات متلاحقة تساندها الطيارات و المدفعية و لكن دون أن يستطيعوا زحزحة الثوار .

قتل الكابورال محمود الجزائري الذي التحق بالثورة و استولى العدو على رشاشه الثقيل , الذي كانت تعتزه به و بصاحبه عصابات الجنوب .

تذكر حمد صديقه الكابورال محمود فبكاه وحيدا " في رؤوس الجبال و راح يستعيد في ذهنه مخيم ميسلون و نبوءة الكابورال الرهيبة :
دماء و خراب و تشرذ ...

و لم يحقد بادئ الأمر على البارتيزان , أولئك الشبان الفرسان , من أبناء بلده الذين تطوع بعضهم في الجيش , كما سبق له أن تطوع هو ...

إلا أنه لم يستطع الاستمرار في تبرير خدمتهم للعدو , صحيح أنه هو من الشبان القلائل الذين أغرتهم البدلة و البندقية , إلا أنه لم يكن يخطر بباله على الإطلاق أنه سيوجه هذه البندقية إلى صدور أبناء وطنه , و عندما وقف وجهها" لوجه أمام التجربة استطاع أن ينتصر عليها
أما هم فإنهم يزدادون عددا" يوما" بعد يوم ...

لقد كانوا فوق خيولهم العربية , و في منطقة يعرفون شعا بها و بطاها معرفة جيدة , يرهقون العصابات المنتشرة من اللجاة حتى حدود إمارة شرق الأردن يكشفونها و يطاردونها , و يقتلون منها أحيانا " أو يسمحون للجيش المتقدم خلفهم أن يقتل منها
و هذه أخبارهم في أبو زريق , و قيصما و اللجاة ...

كان حمد يعرفهم و يعرف طريقتهم في القتال , شاهد بعضهم من عشرين إلى ثلاثين خيالا" يتقدمون على رأس الجيش الفرنسي في معركة السويداء الرهيبة , شعر بالاشمئزاز آنذاك إلا أنه سرعان ما غفر لهم .
ألم يكن هو أيضا" متطوعا في جيش الشرق ؟ ...

و اصطدموا به و بعصابته غير مرة إلا أنه كان ينسحب و رفاقه بلا مقاومة , لا خوفا" أو جبنا" و إنما تجنبنا" لإراقة دماء مواطنين سواء أكانوا مغرورين أو خائنين , و مع الزمن أخذ هذا النوع من الهرب و التجنب يتحول إلى اشمئزاز فحقد , و خيل إليه غير مرة أن يضربهم , أن يتصيدهم تماما " كما كان يتصيد الدوريات العسكرية , إلا أنه كان يفضل دائما" عندما تلوح كوفياتهم البيضاء في الأفق , أن يحدد عن طريقهم و في نفسه صراع ...

و كان فصل الشتاء فصل هدنة طبيعية , و إن تكن متقطعة بين فلول العصابات و الحملات العسكرية التي تجولت بقوة أثناء الصيف , متغلبة بضخامتها و عتاها على المضايقات المزعجة حيننا " و الطفيفة أحيانا" أخرى ...

و في مطلع ربيع 1927 لم تشهد شعاب الجيل غير عصابة حمد ذياب الفار من جيش الشرق مع ثلاثة من رفاقه أحدهم جندي فار مثله , حمود نعيم ابن بلدته و رفيق جهاده . عادوا يتصيدون العدو تماما " كما يصطادون الحجل أو الوحش ...

و ذات صباح , أزت طائرة خلف السحاب المتقطع , وانطلق منها إلى الأرض ما يشبه القنبلة الصغيرة أخذ يرتفع منها إلى عشرات الأمتار دخان كثيف , و صوبت البنادق الأربعة نحو الطائرة ذات المحرك الواحد و الأجنحة الأربعة إلا أنها كانت قد اختفت بسرعة خلف السحب و القمم .

عرف الرجال الأربعة أنهم أمام عدو مقبل و نظر بعضهم إلى بعض و هم يعتصمون بالصخور الضخمة النائية و قد كان الماء لا يزال متجمدا " في ثراياها , و لاحت من بعيد الكوفيات البيضاء و تطلع الرجال بعضهم إلى بعض , و امتدت أكفهم إلى جرار البارودة و لصقوا بالصخور كأنهم قطع منها , و همس واحد منهم في شبه أمر :

- لا تضربوا الخيالة ... اضربوا الخيل ...

و سقطت جياذ ثلاثة و هي ترفس الأرض , بعد أن قفز أحدها في الهواء و هو يصه ل و ينكفي على فارسه الذي ظل ممدودا" , في حين تمكن الآخران من أن يخلصا ساقيهما في حركات عصبية مرتجفة ...

توقف الخيالة فجأة , ثم انتشروا متباعدين و هم يشكلون قوسا" واسعة . و تقدموا ببطء شديد و هم يطلقون النار بلا هدف على أكوام الصخور السوداء اللامعة و سقطت جياذ أخرى , و شوهد فرسانها يزحفون في الطين اللزج و هم يشدون على ساق مرضوضة أو ذراع مهشمة ...

و سمع حمد صوت واحد من رفاقه يهمس : انهزموا ...

و لكنه لم يهتم به فقد كان يفتش بعيني عقاب عن القبعة الاسطوانية ذات الأشرطة الذهبية , و لكن دون جدوى .

و لم يجد لذلك تعليلا" مقنعا" , فإن مثل هذه الكوكبة من الفرسان لا يمكن أن تخرج إلا إذا كان على رأسها ضابط فرنسي , و هذا التقدم العنيد لا يمكن أن يتم في غياب الضابط الأجنبي ...

و التفت حواليه فجأة فلم يجد غير الصخور السوداء اللامعة و البرك الصغيرة المتجمدة يئز فوقها و يئن سيل من الرصاص المنهمر ...

-- سلم يا حمد !.. سلم !..

و مد حمد يده إلى جناده يعمر بندقيته م ن جديد , و أحس بشيء كالجمر يخترق كتفه فيسقط المشط من كفه , و يحاول أن يتناول غيره , فتأبى يده أن ترتفع و يحاول ثانية أن يساعدها باليسرى و هو يتمتم :

- اخس يا حمد ... شد حيلك ...

و تتكاثر النداءات حوله و تتعالى :

- سَلِّم يا حمد ... سَلِّم بوجه فلان ...

و يتلمس حمد صدره فإذا كفه ترتفع مضرجة بالدم . و إذا الفضاء يتراقص أمام عينيه بقعا " حمراء و صفراء , و قطعاً" من ظلام دامس .

و عندما فتح عينيه على صوت يصرخ بحدة و رجاء :

جندي مون كابتين !... سولدا مون كابتين !... !

شاهد فوهة مسدس تتراجع عن صدغه , و عينين زرقاوين تنظران إليه بحقد و حنق تحت حافة قبعة يزيناها شريطان مذهبان و قد لفها شال من الصوف الأبيض الناصع ...

و عندما فتح عينيه للمرة الثانية كانت يدان تصرخان بعنف و قوة عن أعلى صدره كوفية مغمسة بالدم المتجمد , و وجه حليق فوق مئزر أبيض يتفحص الجرح باهتمام ثم تتحرك اليدان من جديد و تتحرك معه يدان ناعمتان و عينان بلون البحر , كان حمد يحس بآلام قاسية لا تطاق , و لكنه لم يسمح لنفسه أن يذل , أو يتوجع , أو يصرخ , كان يعض على شفته حتى يكاد يدميها , أو يغمض عينيه أو يصر على أسنانه في حشجة مختنقة , كلما غرزت في جرحه العميق آلة حادة أو سكب فوقه كحول يحس معه و كأنه يحترق فجأة .

تمنى غير مرة لو أن المسدس الرهيب لم يتراجع عن صدغه , لو أن جرحه كان قاتلاً" لو أن أحدا" لم ينه الضابط ذا القبعة المختفية تحت الشال الأبيض الناصع إلى أن الجريح جندي فار فيجهز عليه برودة و بساطة .

لم تكن آلام الجرح المبرحة وحدها هي التي جعلته يتمنى الموت و يشتهيهِ و آلام الأسر و القهر أشد مضاضة , إلا أن البسمة الناعمة و اليد اللطيفة تمسح العرق المتصبب على جبينه و عنقه , و اشتياقه إلى أخبار الأهل , و اعتزازه بأنه لم يستسلم و لم يقتل أبناء وطنه , رغم حقه و اشمئزازه ...

كل ذلك جعله يتقبل الحياة بشيء من الاستسلام الهادئ ...

و في خلال شهرين , خالهما عامين كاملين وقف حمد في المحكمة العسكرية و يده لا تزال بالأربطة البيضاء فوق صدره .

كان شجاعاً" ثابت الجأش , تكلم بانطلاق و بساطة , و أكد للمحكمة , بكل جرأة أنه فضل أن يحمل السلاح إلى جانب مواطنيه , تلقائياً" و بقناعة شخصية على أن يحمله ضدّهم , كان يتمنى لو استطاع الثوار أن يخرجوا فرنسا من البلاد بقوة السلاح بعد أن فشلت مساعي السلم , كان الثأر يغلي في عروقه و يدفعه إلى الانتقام للبلد الشجاع المغتصب , للأخ الشهيد و للذراع المتصلبة , و للناس الذين قتلوا أو شردوا دفاعاً " عن أوطانهم و عن استقلال بلادهم و حريتها .

كان يتكلم بهدوء , بلا جعجة و لا تكلف , و ذكر بشئ من الاعتداد أنه لم يسمح لنفسه أن يطلق
طلقة واحدة على الفرسان المتطوعة , كان يرمي خيولهم ليرتدوا عنه و عن رفاقه . . .
و كان القضاة ببزاتهم العسكرية الفخمة , و أوسمتهم البراقة الملونة , يتبادلون نظرات تصنع الهدوء
إلا أن بريق الإعجاب الحاقد كان يفضحها بين الحين و الحين .
وقف حمد , غريبا" وحيدا" , لا تشجعه أي لفظة , ينتظر نتيجة المداولة بمزيج من الطمأنينة و القلق
. و عندما وقف الجميع يستمعون إلى الحكم المبرم :
- إعدام يخفف إلى عشرين سنة نفي و عشرين سنة أشغال شاقة . . .
أحس بغصة تخنقه , و بموجة من الحقد الجارف تغمر صدره الجريح . و كاد يتهاوى لو لم يستند بيده
الحررة إلى حاجز القفص الخشبي .
- إعدام يخفف إلى عشرين سنة نفي و عشرين سنة أشغال شاقة . . .
و خيل إليه أن حكم الإعدام أخف وطأة و أرحم من هذا الحكم , و لكنه لم ينطق بكلمة , لم يعترض .
لم يستعطف بل أسلم نفسه إلى السجنان يجره بسلسلة من حديد يطبق طوقها الضيق البارد على معصمه
الشديد النحول .

الفصل السادس

كانت صفارات الباخرة تنطلق مبسوطة متقطعة , فيتردد صداها في أبنية المدينة , و التلال القريبة
المكحلة بغابات الصنوبر .
و كان البخار يندفع أبيض كقطع الغيم ليختنق في الدخان الثقيل الأسود المتصاعد كثيفا" تتسلى الريح
بتذريته في الفضاء المتجهم .
و كانت طيور النورس ذات الأجنحة الطويلة القوية البيضاء تحوم بحماسة فوق الميناء , و البحارة و
المسافرون و المودعون و القوارب الشراعية الصغيرة في حركة و ضجة لا تنقطع . . .
و عندما بدأت الباخرة تترنح متأرجحة بتثاقل , و بدأت مقدمتها تشق الموج بدلال و تيه , تغلغلت في
العنابر أجساد كانت منبطحه فوق الحديد تلف ذاتها في بطانيات سمراء متهاكلة .
كان بعضهم قد جرب البحر , أما الآخرون , فهم لا يعرفون البحر إطلاقا" أو يعرفونه من بعيد .
مئات من السجناء المنفيين تكوموا في عنابر الباخرة , تحت الحراسة المشددة و في ظل أقسى التعليمات
, ليساقوا إلى ديار لا يعرفونها و ليقوموا بأعمال لم يستطيعوا أن يتصوروا مدى تحملهم لها , و إلى مستقبل كالح
مرير لا يدركون له نهاية و لا يلمحون فيه شبحا" مشجعاً من رجاء .

و بدأت الحركة على السطح تهدأ , و أحس السجناء في قاع السفينة بما يشبه الغثيان و الاختناق , و طلبوا الإذن بالسماح لهم في الوصول إلى المغاسل . . . اثنين ! . . . اثنين ! . . .

صرخ السجناء بصوت حاول أن يو دعه كل معاني الحزم و التهديد و القوة و تقدم اثنان من السجناء نحو السلم الحديدي المعلق بكوة صغيرة في السقف , و صعد واحد تلو آخر . . .

كانت بقع السماء تنكشف شاحبة بين الغيوم الداكنة المتحركة المتدافعة باستمرار , و كانت , الريح تصفر باردة كثيفة و الشمس ترمي بأشعتها الباهتة المحتضرة بعض رؤوس الجبال التي بدت بعيدة و ضئيلة , و قد ارتقى تحت أقدامها خط متعرج داكن تلمع فيه بين الحين و الحين بقعة باهتة ملونة . و البحر الذي بدا بالأمس أمام ناظري حمد رهيبا " متدافعا" يزأر و يتكسر رذاذ على صخور الشاطئ , بدا الآن أكثر وقارا" و أقل رهبة , و خيل إليه أن لونه لم يعد بلون السماء .

و في السفينة ذاتها كان المسافرون قد اختفوا من الممرات و إن بدا بعضهم أحيانا " يسرع الخطى من مقصورة إلى أخرى و هو يشد بيده على قبعة ي كاد يقلعها الريح أو يغطي أذنيه بحافة معطفه و هو يتجمع بشيء من الارتباك و القلق , أما البحارة فقد انصرف كل واحد منهم إلى عمله في حين ظل بعضهم يدخلون غليونهم بهدوء و هو يستند إلى حاجز أو سارية , و يسبح بنظره في الأفق الذي بدأ يلفه ظلام تلمع فيه مجموعات كبيرة ضبابية من الأنوار المعلقة بين الأرض و السماء , و يغرق في ذكريات ملاهي بيروت الصاخبة و دفء لياليها .

و كان السجناء , و قد تسمر حوله عدد من الجنود و أيديهم على زناد بنادقهم يصرخ بين الحين و الحين :

- انزل بسرعة . . . اطلع بسرعة . . .

ثم ساد السكون من جديد و لم يعد يسمع غير ضربات الأمواج تتكسر على جدران العنابر و هي تحمق برعب مهددة مزبدة من خلال الكوى الزجاجية الصغيرة , و يرتفع بعضها في الهواء معربدا " ينسكب رذاذا" كثيفا" من خلال الكوة المعلقة في السقف , و انطلق في ثنايا ظلام العنبر الكئيب الرطب لم تأرجح صوت حزين , حزين حتى الموت :

يا حسرتي ناحت علينا النايحة

و العين تبكي و المدامع سايحة

من بعد طيب العيش والمي الزلال

صرنا نشرب من بحور المالحة . . آه . .

و اختنقت الآه في نشيج متقطع طويل . . .

لم تعد الأجساد الممددة فوق حديد العنابر تعرف أين هي و كم من الزمن مضى على وجودها في هذا الكهف الحديدي المرتجف , ولم تعد تعرف الليل من النهار إلا من السك ون الذي كان يخيم فوقها ومن حركة الركاب المتدافعة في الممرات أو من وجبات الطعام المقنن الجاف في أوقات شعروا أنها ثابتة و عندما كانوا يحسون أن المركب قد توقف , و أن صفارته بدأت تدوي كانوا أشد شوقا" و تلهفا" إلى المغاسل يطلعون من كواها على العالم الذي تشرق عليه الشمس و يتحرك فيه الناس بحرية .
كم كانوا يودون لو استطاعوا أن يقفزوا إلى ذلك العالم الذي ازدادت ألوانه بهجة و حركته مرحا " , و جوه سحرا" .

و في غمرة من هذا الشعور الممزوج بجنون اليأس كان بعضهم يقذف بنفسه في أمواج البحر في غفلة أو تغافل من حراسه . و خطرت لحمد مثل هذه الفكرة ...
لماذا لا يضع حدا" مبكرا" للمصير الرهيب الذي ينتظره ؟ ...
لماذا لا يفوت على جلاديه فرصة تعذيبه و إذلاله ؟ ...
لماذا ؟ ... لماذا ...

إلا أن طيفا" واحدا" يلتئم بمنديل أبيض فضفاض ظل بنظرته المتوسلة المسهدة يبخر من وراء الغيب كل محاولاته , بهدوء أشعة الشمس الجبلية و إشراقها ...
تذكر حمد نزهته الخاطفة على شاطئ البحر في بيروت , و هو يتطلع باستغراب و مرح إلى السباحين الصغار , و صياد السمك والموج الفضي اللعوب ...
آه كم كان البحر جميلا" رائعا" مشوقا" يومذاك ...

أما اليوم ... فقد أحس بأنه بشع , متحجر , يستحق كل حقه و نقمته و هذه السفينة التي بدت في أفق الأمس دارة لطيفة سحرية تنزلق و تتهادى بدلال و تيه , بدت اليوم في ناظره نعشا" كالحا" من حديد يتحرك في المجهول الخانق نحو المجهول الرهيب .

و في المساء أو في ما خيل إليهم أنه المساء كانت تترامى إلى مسامعهم نغمات موسيقا , تضج أحيانا" و تخفت أحيانا" عرف فيها بعضهم أن سهرة راقصة قد بدأت فوق ...

و كاد حمد في مثل تلك الساعات أن ينسى نفسه فقد كان خياله الشاب يخترق به الكوة المعلقة بالسقف , و ينطلق به إلى ظهر السفينة و يجوس في المقاصير التي لمحاها حمد و هو يدفع دفعا " نحو كوة العنبر ...

كم كان يتمنى لو عرف شيئا " عن حياة الناس الذين يعيشون فوقه , تمنى أن ينظر إلى وجوههم , أن يحدثهم , أن يشاهدهم وهم يرقصون على أنغام موسيقا لم يألّفها و إيقاع غريب جدا " عن ألحان المجوز و الشبابة التي تعودها ...

و تذكر حمد الصور الرهيبة التي كانت ترسمها العجائز لجهنم و الجنة , وهن يتسلين بصنع أطباق القش الملونة تحت شجرة التوت الضخمة , تذكر تلك الصور و أحس أنها قاصرة عن هذا الواقع الذي تحياه عنابر السفينة , و مقاصيرها لولا رائحة الشواء التي كانت تفوح في أحاديث العجائز الجبليات .

كان الطبيب يزورهم من حين إلى حين , و كان يوصي بنقل المرضى من بينهم إلى مستوصف خاص , و كان الذي يرجع منهم يروي لرفاقه شيئاً " من العالم الآخر , فوق , شيئاً " مشرقاً " مثيراً", كله بهجة و مرح و انطلاق ...

و أحس حمد بدافع جارف يزين له الانتقال إلى المستوصف البهي ج و كانت جراحه تسمح له بأن يتراخى فينقل , ولو مؤقتاً , و لو بضع ساعات من هذا النعش المرتجف إلا أن كبرياءه ظلت تأبى عليه أن يتهاوى و هو على عتبة درب شديد المشقة لا يعرف أين و لا كيف ينتهي ...

و ذات مساء ترمى إلى سمع الأجساد المتقلقة في العنابر الرطبة المظلمة أصوات صافرات مبحوحة متفاوتة الأبعاد و النغم و شعروا بحركة ذهاب و إياب و قرقرة خافتة فوق رؤوسهم , و وصلت إلى أنوفهم رائحة الزيوت و الدخان , و الفحم الحجري ... و ما كادت تساؤلاتهم تبدأ حتى كان السجان و خلفه ثلة من الجند تطل برؤوسها الفضولية من الكوة و في أيديها رزم هائلة من الحديد الأبيض :

- اثنين ... اثنين ...

صرخ السجان و هو يطل بنصف جسمه من الكوة ثم انتصب و راح يوزع أوامره و تعليماته على الجنود .

راحت القيود الحديدية تستقبل السجناء في حراسة الحراب و الوجوه العابسة الكالحة و أخذت السلام تصر و تفرقع تحت وقع أقدام متناقلة تنزلق بحذر و هي تتلمس طريقها نحو الميناء الذي بدا هادئاً " ساكناً" في مثل تلك الساعة من الليل , في حين كانت أضواء المدينة تشعشع براقاً متراقصة .

كانت سجون مرسى ليا تنتظرهم , و ها هو القطار بعربات الطويلة السوداء , يقلهم نحو القلاع المطلة على المدينة و على الميناء الذي أخذ يبدو غابة من جذوع تتحرك و تتمايل .

عرف حمد سجن الرمل في بيروت . أن سجنه الجديد لا يختلف كثيراً" عنه و إن بدا أنظف و أحسن طعاماً" .

إلا أنه كان على ما يبدو سجناً " مؤقتاً" أو محطة للسجناء في طريقهم إلى السجون الأخرى.

و في اليوم الثاني وقف السجناء أرتالا " في الباحة العالية الأسوار و انتصب أحد الرقباء يتلو قوائم طويلة من الأسماء و الأرقام .

و لاحت من حمد التفاتة إلى الصف الطويل على يساره و إذ به يحدق في وجه دقيق ذي شاربين خفيفين ... أنه رفيقه و صديقه في العصابة ... حمود بن قاسم نعيم (المدير) من السويداء

غير أن العريف لم ينطق بهذا الاسم أو بما يقرب منه ، بل طلب من السجناء الذين نادى على أسمائهم أن ينفصلوا عن رفاقهم إلى زاوية نائية من الباحة .

و كان وداع و كان عناق و نشيج في حين كان الحراس المنتشرون بكثرة فوق أسوار الباحة ينظرون بكثير من البرودة إلى هذا المشهد الذي ألفوه من عهد طويل .

سارت قافلة السجناء إلى حيث ينتظرها الأغلال و القطار من جديد .

و كان القطار هذه المرة من نوع آخر ، سجون خشبية منفردة ذات كوى حديدية صغيرة يرتبط بعضها ببعض في خط طويل طويل .

جثم حمد في زنزانتة الغريبة طليق اليدين إلا أنه عاجز عن الحركة الحرة فقد كان القفص ضيقاً " منخفضاً" خانقاً" وإن ظل هواؤه على شيء من اللطافة .

و ارتعشت العربات و تقلقلت متحركة ببطء ثم انطلقت يشق الأجواء صفيها الحاد و قرقعة شاحناتها في انطلاقة جنونية نحو المجهول .

لا شيء غير قرقعة و اهتزاز و صفير و برهة توقف ثم انطلاق متقلقل جديد فانسياب و همهمة لا يقطعها غير كوة تفتح في أوقات محددة يمي من خلالها بعض الخبز الجاف مع قطعة جبن أو علة سردين .

توقف القطار قبيل المغيب و سمعت ضجة و نداءات و أوامر و قرقعة سلاح متلا حقة في أرجاء المحطة . و من ثم تقدم بعض الجنود و في أيديهم رزم حديدية بينما وقف عدد كبير آخر منهم و أيديهم على أسلحتهم .

كانت العربة تفتح ، و يؤمر السجن بالخروج لتلقفه أغلال الحديد و يقرن بزميل له ، و من ثم تؤمر القافلة الطويلة المكبلة بالسلاسل و الأغلال بالسير في طريق بدا خاليا " إلا من حراس يتجولون و بنادقهم في إيمانهم أو فوق أكتافهم . . . تقدم الموكب الكئيب الرهيب في صمت يكاد يكون عميقاً " لولا وقع الأقدام المتثاقلة و التنبيهات الخاطفة الجافة من حين إلى حين .

و عندما كانت الشمس تختفي كان السجناء الجدد يكدسون في عابرة ضيقة رطبة خانقة يتوسد بعضهم بعضاً " بلا طعام و لا غطاء و هم يحاولون أن يلوذوا بالنوم الذي استعصى على أجفانهم المسهدة المرهقة .

و كان حمد يستند بظهره إلى الجدار اللزج في محاولة للتخفيف من متاعب السفر الطويل المضمي ، و كان يغمض جفنيه عمداً" بين الفترة و الفترة ، يغريهما بحلاوة النوم و الاستسلام للنعاس ، و لكن دون جدوى فقد كانت الذكريات المريرة و المستقبل الكالح و العذاب و الجوع و التعب كل ذلك يشد أعصابه شداً" بخيوط من فولاذ ، و مع الفجر كانت الأبواق تدوي في القلعة الضخمة الواسعة ، و كانت الحركة تدب فيها صاخبة متسارعة .

و فتح باب العنبر و نودي على السجناء الجدد واحدا " واحدا" وهم يؤمرون بالإسراع إلى باحة جانبية حيث راح السجان يقسمهم إلى فرق صغيرة تقف كل واحدة منها باتجاه باب حديدي ضيق منخض يقف على جانبيه جنديان مسلحان .

و رأى حمد السجان يأمر السجين الأول بأن ينزع ثيابه , فلم يتردد بل أخذ يخلع معطفه و قميصه و سرواله بشيء من الخفة ثم وقف في شبه استعداد بثيابه البيضاء الداخلية .

إلا أن السجان راح يصرخ في وجهه ب حدة و حزم و هو يأمره بأن يخلع كل ثيابه ... كلها و أن يكومها إلى جانبه و هو عار ... كما ولدته أمه ...

و تقدم أحد العرفاء يرزمها و يربط بها بطاقة دون عليها اسم السجين و رقمه ثم أشار بيده نحو أحد الأبواب الحديدية فانطلق الرجل مهرولا" وهو يخفي عورته بيديه .

كان حمد يرفي هذا المشهد و الغصة تكاد تخنقه و هو يتمنى لو تنشق الأرض و تبلعه قبل أن يأتي دوره و يقف عاريا" أمام هؤلاء الجلادين العديمي الحياء .

و أحس بأن جسده بدأ يتصبب عرقا " باردا" , فمسح جبينه مرة تلو المرة و هو يعرض على شفة جافة كاد يدميها .

كان القبو دهليزا " باردا" طويلا" ضئيل النور يفضي إلى باحة ضيقة يتحرك فيها عدد من الجنود , و يحرس مشارفها عدد آخر تلمع حراهم تحت أشعة الشمس التي بدت ساطعة دافئة , و على باب الباحة الحديدي الداخلي كانت رزمة جديدة من الثياب تنتظر السجين المرتجف العاري , ثياب داخلية نظيفة و أن تكون قديمة و شبه بيجاما مقلمة كأنها جلد حمار وحشي و قطعة من نحاس شبكها السجان في صدره و عليها رقم طويل لم يعد حمد يتذكره و ربما عمد إلى أن ينساه .

و في وسط الباحة كانت تنتصب كرسي وقف إلى جانبها جندي و في يمي نه آلة حلقة و مقص دقيق شديد اللمعان .

حاول حمد أن يتجاهله إلا أن الجندي نادى بشيء من السخرية :

- موستاش ... و رنت قهقهة ماجنة في جوانب الباحة , و دوى صوت التعريف يأمر الجندي الحلاق بالإسراع .

جلس حمد بين يدي الحلاق بهدوء لم يعهده في نفسه , فقد صمم على أن ينقذ شاربيه من ذلك المقص الرهيب إذا هو تظاهر بالوداعة و الاستسلام , و إلا فإن الأمر سيكلفه كثيرا" ...

الشارب يجب أن يسلم , إنه الشرف .

و عندما وقف ينفذ الشعر المتساقط على عنقه و منكبيه , تسلل إلى سجنه الجديد و هو يتحسس شاربيه بشيء من الطمأنينة و العزاء .

و ما كاد حمد يعرف أنه في سجون ((نيم)) حتى كان القطار الرهيب ذو الكوى الحديدية الضيقة , ينقله إلى سجن آخر , لم يعد يذكر اسمه تماما" و إنما هو يلفظه ((فونتغرو)) , و من ثم إلى السجن الخشبي ليحمله في رحلة طويلة و يلقي به في سجون مدينة ((بورديو)) .

ها هو الآن على شاطئ الظلمات .

في انتظار رحلة طويلة نحو العالم الجديد إلى منافي الغويان في أمريكا الوسطى .

إن أخبار تلك المجاهل الرهيبة و أساطيرها تملأ السجون رعبا " . و مع ذلك قلائل هم الذين استطاعوا أن يعودوا من تلك الرحلة الجهنمية الملعونة إلا إن تفاصيل شقائها و فظائعها كانت تملأ أجواء السجون .

كانت التعليمات هنا على أشد ما تكون م ن الحزم و الدقة و القسوة , فالتحدث ممنوع لا كلمة و لا همسة , و إذا اضطر السجنين إلى مخاطبة سجانهم صفق مستأذنا" بالكلام .

كان السجناء يجتمعون بكثرة متزايدة في مهاجع واسعة شديدة التحصين قوية الحراسة , فالسجون في (بورديو) هي بوابات جهنم الغويان بل هي محطة تجمع التعساء , من كل أبناء الأمم المستعبدين من حدود الصين حتى المغرب و قلب افريقيا و فرنسا نفسها .

إن بعضهم يكس الشهور و البعض الآخر الستين و الثلاث بانتظار دورهم ليشحنوا إلى مناطق الأشغال الشاقة و المنافي , و بانتظار وصول المركب الكبير المخصص لنقل أولئك المعذبين , كانت إدارة السجون تستغلهم في صنع شباك الصيد , فتقسمهم إلى فرق تتناوب العمل في ممر طويل تتدلى على جنباته الخيوط السمراء الشديدة النعومة و المتانة ينتصب في وسطه مشرف أو أكثر يدرج و يحث في هياج دائم و عبوس .

أحس حمد مع هذا العمل بشيء من الراحة و الهدوء اللذين كان يحس بأنه في أشد الحاجة إليهما بعد الأيام القاسية في المستشفى و الأسفار المضنية في العنابر و الزنزانات المتجولة بين مرسيليا و بورديو , و كان يبدو على شيء من الاستسلام إلى القدر , و ربما على بعض الرضى عن نفسه فهو سجين نتيجة أسره في معركة كان يدافع فيها عن حرية بلاده و استقلالها , و هو لم يجبن أو يذل في المستشفى أو في المحكمة و لم يلتمس العفو أو الرحمة من قضاة , و كان يزيده اطمئنانا " هذا السكون الشامل و السكوت المفروض على السجن , فهو بطبيعته ميال إلى التأمل و الاسترسال رغم هذا القيد الثقيل الشرس الذي يكبل قدميه ليلا " نهارا" و رغم ذلك الخبز الشديد الجاف كأنها هو قطعة من حجر طري , و مع أنه أحس بأن اللقب الجديد الذي أطلق عليه - موستاش - كان للسخرية إلا أنه شعر في أعماق نفسه بأنه سيظل بذلك أشد اعتزازا" و حفاظا" .

و ذات يوم كان موزع البريد الوحيد في السويداء ينطلق رغم الثلج المتساقط و الزمهرير في أزقة حي (المشنقة) و قصر نجمة و في جيبه رسالة من فرنسا

كتب على زاوية منها :

المرسل , حمد ذياب .

و تربعت المرأة العجوز ذات المنديل الأبيض السميك قرب الموقد و قد شدت لثامها على شفيتها و
أنفها و راحت تستمع , إلى الموزع يقرأ لها الرسالة الوداعية بهدوء و صمت كتيب لا يقطعه غير أنه خافتة أو
دعاء تخنقه عبرات كاوية .

سيدتي الوالدة الحنونة أدامك الله آمين .

أقبل يديك و أطلب صفو خاطرك و دعاك يا أمي الحبيبة , و أرجو الله أن يكون في عونك و أن يلهمك
الصبر الجميل إلى اليوم الذي سنعود فيه بإذنه تعالى إلى أرض الوطن وننعم بلقاء الأهل و الأحباب .

الصبر يا أمي مفتاح الفرج و أنت دائما " كنت تعلمينا ذلك و تشجعينا على تحمل مصائب الدهر و
متاعب الحياة .

و أكتب إليك اليوم يا أمي الحبيبة من المركب الذي سينقلنا في صباح الغد إلى البلاد التي تقرر أن
نقضي فيها مدة الحكم في المنفى .

نقلنا يا أمي بالبحر إلى فرنسا , و في فرنسا كنا ننقل من سجن إلى سجن حتى وصلنا إلى مدينة اسمها (
بورديو) على شط البحر الكبير , و بعد أن مكثنا فيها بضعة شهور صدر الأمر بنقلنا إلى الغويان في اميركا , و في
صباح هذا اليوم كان المركب الكبير يقف في وسط البحر كأنه سرايا السويداء أو أكبر , و كان الموج يضرب على
جوانبه كأنه يضرب على جبل من حديد و الريح الباردة تصفر و الغيم الأسود يغطي السماء . سرنا في صفوف
طويلة و القيود في أيدينا من سجون القلعة حتى الميناء , و كان الناس ينظرون إلينا بشفقة أحيانا" و بخوف
أحيانا" و كان أكثرهم يسير خلفنا باتجاه

(البور) حتى الأولاد تركوا مدارسهم و راحوا يركضون حولنا يتفرجون علينا و أكثرهم يستغربون هذا الموكب
من الأسرى .

و في جوانب الميناء كانت تربط طوافات من الخشب كل واحدة منها في حجم عشرين لوح أو أكثر من
ألواح الدراس .

ركبونا فوق هذه الطوافات و الحديد في أيدينا و أوصلونا إلى سلام المركب و في أسفل السلم كان بعض
الجنود يقفون لفك أغلالنا قبل الصعود إلى ظهر الباخرة .

و كثير منا بقي في يديه بعض قطع الحديد من العجلة , و كنا نتعاون على فكها و التخلص منها و
رميها في البحر .

و تجمع الناس على الشاطئ و هم يلوحون بأيديهم و برانيطهم و مناديلهم لنا يودعوننا و منهم من
كان يبكي يا أمي , و كنا نحن نلوح بأيدينا و نودعهم , و بعد قليل يا أمي سينزلوننا إلى عنابر السفينة و
سنمضي في البحر شهرا" أو أكثر لا نشاهد غير جدران الحديد و السقف الحديد و الأرض الحديد .

يا أمي

لا أستطيع أن أوصيك بكل ما يجول في خاطري و إنما أطلب إليك أن تهتمي بأخي الصغير الذي تركته يرضع و الذي لا أعلم إذا كنا سنلتقي في هذه الدنيا أم لا . و إن كان أملي في الله قويا " بأننا سوف نلتقي جميعا" .

و أرجو كي أن تبلغني البنت أن حمد يعزها و أنه يتمنى لها كل خير وسعادة و لكن ربما طالت سفرة حمد فلا يجوز أن أحجز حريتها و لأهلها الخيار في تزويجها لمن ترغب فيه رغم أني كنت أتمنى أن تكون نصيبي .

يا أمي الحبيبة :

أرجو أن تتحملي بشجاعة غياب حمد بعد أن فقدت والدي و حمود , و أن لا تقطعي الرجاء من عودتي , و إني واثق من الله سوف يستجيب دعائي و دعاءك في اللقاء .

و ربما ألح عليك يا أمي بعض الأهل و الأصدقاء لتقدمي طلبات استرحام أو لتذهبي و تستعظفي الحاكم .

أتمنى يا أمي أن لا تتذلي لغير الله و لا تستعظفي غير الله لأنني لم أقم بحول الله بأي عمل يخل بالشرف و الناموس .

يا أمي سوف تصلك هذه الرسالة و الناس في السويداء على عادتهم يجرفون الثلج عن السطوح الترابية و هم يهزجون و يفرحون , و ينتظرون مع هذا الكفن الأبيض عودة الربيع الزاهر الأخضر الجميل , و لي رجاء و ثقة بالله تعالى بأن قلبك يا أمي الحبيبة سيعود إليه الربيع الجميل الأخضر عندما يعود حمد و يلاقيه الأهل و الأصحاب بالأهازيج و الحدا .

أقبل يديك يا أمي ألف مرة و سلامي إلى أخي الذي لا أعرف اسمه حتى الآن و إلى أخواتي الصغيرات و عسى أن يردنا الله إليكم سالمين آمين .

حمد

الفصل السابع

كانت الشمس الإستوائية المحرقة اللاهبة تتوسط السماء الشديدة الزرقة و الصفاء . عندما أخذت الطوافات الخشبية تنقل المنفيين الجدد ذاهبة آبية بين البر و الباخرة التي كانت تدوي و تنفث دخانها الأبيض كأما هي تلهث من رحلتها المملة الطويلة المرهقة .

و اصطف السجناء في رتل طويل مزدوج و في ظل حراسة مشددة و انطلق صوت حاد ينثر التعليمات و هو يتوقف بين الحين و الحين متسائلا عما إذا كانت قد وصلت إلى الجميع .

و من ثم أمرت قافلة الرقيق بالتحرك .

و تحركت الأقدام متثاقلة وقد أضنتها رطوبة العنابر و الانطواء , و تمايلت الأجساد و الرؤوس في وسن و خمول و تدلت الأيدي متراخية كأنها خرق طويلة من قماش وهي تمسح في حركة بطيئة دائرية حيناً بعد حين الجباه التي بدأت تنضح بالعرق اللزج .

كان الطريق ممراً" يكاد يكون مظلماً" رغم الظهيرة و قد انتصبت على جانبيه جدران عالية من جذوع و فروع باسقة تدلت منها منات الحبال و الألياف معلقة في الهواء أو مختفية في أحضان الأشجار السامقة أو غارقة في جنباتها بين الهشيم و الأغصان اليابسة المكدسة .

كان الجو حاراً" خانقاً" بالرغم من الظلال الوارفة عندما تلبدت الفرجات السماوية التي كانت تبدو أحياناً" من خلال الأشجار و انهمرت الأمطار سخية فاترة إلا أنه سرعان ما عاد إلى السماء صفاؤها و رونقها , و سرعان ما عاد إلى الثياب المبللة و الأرض المكشوفة النادرة شيء من جفافها .

توغلت القافلة الخرساء في سيرها الكئيب المتثاقل خلال الممر الضيق الكثيف الظلال يهزها صوت حارس معربد أو يثير انتباهها و استغرابها و أحياناً " فزعها قرد يقفز في ضوضاء و صخب من فوق رؤوسها أو أفعوان ضخمة يتدلى و يتأرجح في نهم و تكاسل .

و انفرجت الغابة العذراء عن باحة واسعة من الأرض العراء تطوقها من كل جانب الخضرة الكثيفة الداكنة العالية و تنتصب في أرجائها مجموعات من الأبنية و الأسوار المتباينة .

هنا فيلات على غاية من الرشاقة و الجمال تزهو شرفاتها بالأزاهير و المظلات المتعددة الألوان , و يبسم قرميدها الأحمر الذي زاده مطر الظهيرة نظافة و رونقاً" , و تبرز من نوافذ بعضها رؤوس نسوة بشعورهن الذهبية أو الفاحمة و هن يتطلعن بمزيج من الإشفاق و الشماتة إلى القافلة الطويلة الذابلة .

و هناك سور ضخمة بلا كوى يرتفع بضعة أمتار و تلتصق فوقه ألوف من قطع الزجاج المختلفة الألوان و الحجوم من بقايا قناني النبيذ , و هي تبدو على غاية من الشراسة , و كأنها أنياب وحش أسطوري يفتح فكه الرهيب في الجو الواسع بانتظار فريسة تهبط عليه من السماء , و هناك ثكنات ضخمة متباعدة و متقاربة تلمع ألواح (الزنك) في سقوفها تحت أشعة الشمس فوق كوى ضيقة عالية تشتبك فيها قضبان الحديد الثخينة , و ترتفع خلفها و حولها أبراج عالية ضيقة تطل منها حراب و بنادق و وجوه بادية التجهم و العبوس .

صرت البوابة الحديدية الضخمة و هي تفتح على باحة مكشوفة واسعة و بدأت القافلة تدخل في سكون و ذل , و راح بعض ضباط الصف يوزعون عليها الأرقام النحاسية الضخمة و يشبكونها فوق الصدور المتأججة حقداً" و مرارة , و من ثم انطلق صوت رهيب خشن يوزع التعليمات الجديدة و يأمر الحراس بسوق المساجين إلى العنابر المخصصة .

و ما عتمت الساحة أن عادت خلاء هامة في حين بدأت ضجة خافتة في العنابر الواسعة القريبة , يتخللها صراخ حائق أو تهديد .

قبع حمد فوق بطائنه السمراء في زاوية من زوايا المهجع الوا سع يخلع حذاءه واجماً " و يستعد للاستراحة بعد أن قضى في نعشه المتحرك شطراً" من الزمن لم يعرف كم طال و بعد أن سار هذه المسافة المرهقة

الرهيبية بين الميناء و المعتقلات مثقلا " بذلة الأسر غارقا " في دوامة هائلة من الأفكار السوداء , و راح يتفرس في وجوه رفاقه و قد ألقت على بعضها الكوى الضيقة العالية حفنة من ضياء الأصيل .

كان أكثرهم من المغاربة بوجوههم السمر الواضحة السمرة و آثار الوشم الأزرق على الذراع و الوجه , و كان الباكون من أمم شتى و مناطق شتى بقامات مديدة أو قصيرة و شفاه ضخمة منتفخة أو رقيقة ناعمة و عيون مشقوقة مائلة و حدود ناتئة .

و قدر حمد عدد رفاقه في هذا المهجع في حدود المئة و راح يراقبهم وهم يفرشون الأرض الخشبية ببطانياتهم استعدادا" لليل الذي بدأ يقبل .

و فجأة صر المفتاح الضخم في الباب الحديدي و انفتح على حلة ضخمة يح ملها جنديان و عدد كبير من الصحون النحاسية الصغيرة و راح أحد الجنود يسكب فيها بعض المرق الساخن .

وزعت الصحون و الملاعق على السجناء ثم أغلق الباب من جديد و اختفى وقع أقدام الجنود مع آخر أشعة الشمس في المهجع .

حرك حمد المرق الأسود و رفعه إلى أنفه يشمه , إنه شيء من العدس و لكن رائحته لا تشجع فلعل مذاقه مقبول . . .

و رفع الملعقة يتفحصها قبل أن يقربها من فمه , فلم يستطع أن يميز فيها العدس من المرق و حاول أن يتحسسها في الظلمة الخفيفة بيده إلا أنه عاد فادخل طرف الملعقة إلى فمه بشيء من التردد و التقزز و راح يمضغ الحبات النادرة بشيء من الحذر خوفا" من الحصى التي لم تكن غريبة عن مطابخ السجن و توقف فجأة مرتبكا" و قد أحس بشيء بل أشياء تسحق بين أسنانه لا هي عدس و لا هي حصى أو تراب .

أعاد الملعقة إلى الصحن و كاد يبصق فوقه إلا أنه تحامل على نفسه و ابتلع بكثير من الجهد ما في فمه من مرق و عدس و سوس .

و تطلع حوله فرأى بعض رفاقه وهم يغرفون ما تبقى في صحنهم , في حين بقيت صحون كثيرة كأن يدا" لم تمسها و قد تمدد أصحابها و هم يتحدثون بصوت خافت كأنه الهمس أو يعلقون ن أبصارهم في السقف الحديدي و يسبحون في عالم من الذكريات .

و انطلقت صرخة أعقبتها شتيمة و قد وثب أحد الرجال و هو يدوس برجله العارية عقربا " كانت تحاول أن تفر هاربة و تختفي بين شقوق الخشب .

و ساد هرج و تساؤلات أعقبها جو من الخوف الم مزوج بكثير من الاشمئزاز و انطلق الرجال يقلبون أغطيتهم و يفتشون بين الثقوب عن تلك الحشرات الملعونة الغادرة .

و توقفت حركة التفتيش عندما انقض من إحدى الكوى خفاش كبير كأنه الغراب يضرب بجناحيه الهواء و ينقلب كالبهلوان يتعلق حيننا" بالسقف و يملأ المهجع بحفيف جناحيه أحيانا" كثيرة .

و عندما بدأ بعض الرجال يحاولون الاستسلام إلى النوم كانت أفواج البعوض تطن طيننا " مزعجا" مرهقا" و كانت خراطيمها تلذع كاوية محرقة , و من ثم تفر هاربة أو تسحق تحت كف ضخمة حاقدة , ظلت تتربص بها فترة من الزمن بصبر عجيب .

كان الجو حارا" خانقا" تزيده أنفاس الرجال في المهجع و روائح عرقهم و أحذيتهم ضيقا" و انقباضا" و يهيمن فيه القلق و الأرق و الانتفاضة الحانقة المفاجئة و الشتائم الخافتة .

و كان حمد يرقب بعينه تململ رفاقه فوق أعطيتهم و حر كات أيديهم و هي تهوي على الخد أو على العنق , و ارتفاع ساق بغتة في الهواء تطرد بحنق صارخ أو مكبوت حشرة لا يدري ما هي أو ذلك الخفاش الذي راح يتلهى بعض أقدامهم و من ثم بالتحويم البهلواني في فضاء المهجع الدافئ.

و رويدا" رويدا" استسلم بعضهم لنوم ثقيل أو مقلقل و ظل الباقون في محاولاتهم اليائسة للإغفاء و قد أرهقت أجفانهم مطاردات الخفاش و البعوض و ضغط الذكريات المشوشة و التفكير في غياب الغد الأسود المرير .

و مع خيوط الفجر بدأ جرس يقرع قرعا " عنيفا" متواصلًا , و بدأت المهاجع تفتح و الحراس يتنادون و التعليمات الخاطفة توزع هنا و هناك بحزم و خشونة .

و انطلقت فرق السجناء , فرق من أربعة أفراد إلى اثني عشر يصحبهم حارس مسلح أو أكثر دون أن يسمح لهم بغسل وجوههم و دون أن تقدم لهم كسرة طعام .

و في الطريق نحو الأبواب الخارجية كان الحارس يشرح لهم المهمة الجديدة و الوضع الجديد :

هذه الجزيرة كلها معتقلات , كثيرون حاولوا أن يهربوا إلا أنهم اضطروا إلى العودة لأنهم لم يجدوا لهم ملجأ غير الغابات بوحوشها و أفاعيها و حشرات السامة , و بعض السكان المتوحشين الذين لا يقبلون بينهم الغريب , و لم يجدوا ما يأكلونه إلا بعض الثمار البرية التي كانوا يعيشون عليها الأيام الأولى ثم يبدأ الجوع فالموت البطيء فالاستسلام .

العقوبات هنا قاسية و زنانات منفردة و حديد و أحيانا" الموت , و الطاعة هي أفضل وسيلة في حياة المعتقل ! . . .

و على مقربة من الأبواب الخارجية كانت الفؤوس و الحبال و الأحزمة الجلدية توزع من المستودعات على فرق المساجين الذين كان يسوقهم حراسهم نحو الأدغال القريبة اللامتناهية .

ما كاد حمد يجتاز البوابة الحديدية الجانبية مع رفاقه ا لثلاثة و السجنان حتى وجد نفسه يختفي وسط الرطوبة و الظلال . . .

- اتبعوني . . .

صرخ الحارس بصوت منخفض و هو يتلفت بحذر و ارتياب و سار الرجال الواحد خلف الآخر في صمت عميق , يد تسند الحبال و الأحزمة الملتفة حول الكتفين و يد تحمل الفأس الرهيفة الثقيلة .

بدأت الأفكار السوداء تهز حمد هذا " و تغريه بأن يضرب ضربة واحدة و إذا هو و رفاقه طلقاء في الغابة العذراء .

الفأس رهيفة ماضية , و الغابة واسعة ظليلة و لكن ... سرعان ما بدأت تلك الأفكار الدموية تتلاشى كلها تقدم الموكب الصامت في أحضان الغابة الرهيبة , فالسجن أرحم ألف مرة منها و أكثر بشاشة و أنسا .

الهشيم و الأغصان اليابسة تتكسر تحت أقدامهم فتتململ الأفاعي الراقدة و تتراجع أو تتناول بأعناقها بتثاقل و غضب , و قد تتدلى متأرجحة في السماء باحثة بع ينين واسعتين و فم لاهث عن فريسة , حتى الطيور الغريبة الزاهية الألوان لم تكن تضي على الغابة أي بهجة و هي تتحرك ببرودة و تملأ الفضاء بأصوات حادة مزعجة كأنها صراخ طفل مرتعب .

هشيم و حبال متدلية و ألياف و جذوع سامقة يلز بعضها لزا و سماء من أغصان و أوراق داكنة و ظلال كثيفة و أفاعي و طيور غريبة تنعب , و عرق لزج , و خطوات في حذر و ريبة , و أرق و جوع و عطش , و متاعب سفر مرهق في عنابر حديدية رطبة ... كل ذلك كان يضي على القافلة منظر الموكب الجنائزي .

توقف الحارس و أشار إلى جذع شجرة أم لس ضخم يرتفع عدة قامات في الهواء كأنه اسطوانة من رخام أسود .

و بدأ يشرح للرجال طريقة العمل :

- يقف واحد من هذه الجهة , و آخر من الجهة المقابلة , و يبدأ العمل و عندما تميل الشجرة يهرب الرجل و هو يصرخ محذرا " بصوت عال عال , بكل ما في قوته .

و انتقل السجان خلال الأشجار الكثيفة الضخمة الضاربة في السماء إلى شجرة أخرى تبعد عشرات الأمتار , و أشار إلى اثنين من المساجين الأربعة بالعمل .

رفع حمد الفأس و بدأ يهوي بها على الجذع الأملس الذي بدا بصلابة السنديان و لك نه راح يزداد صلابة و مقاومة بعد كل ضربة .

رفع الفأس و مر بأصابعه عليها فإذا هي رهيفة ماضية , و هز ساعديه تحسسهما فإذا هما , رغم الجراح القديمة و الأسفار المضنية و الآلام المريرة , لا تزالان قادرتين على العمل و إن كان العمل شاقا " متعبا" . . الخشب إذن هو الذي لم يكن يسمح للفأس أن تنال منه إلا القليل القليل , و بدأ العرق يتصبب و راحت الكف تمسح الجبين باستمرار و أخذ السجان ينتقل بين الفرقتين و هو يحث و يدمدم ...

و قبيل الظهيرة دوت صفارات العودة إلى المعتقلات و بدأت تتوافد الفر ق الجائعة اللاهثة من شتى أرجاء الغابة لتلتهم قطعة من خبز جاف بحجم الكف و شيئا" من الرز المسلوق و المرق , و لتستريح ساعة من

الزمن أو ساعتين , ثم تساق بعدها على عجل إلى استئناف أعمال الصباح , و من ثم تعود إلى مرق العدس و السوس و المهاجع الواسعة الخانقة , حيث ترتع العقارب و الخفاش و تطن أسراب البعوض وهي تلسع و تؤرق

ومع الفجر كان الجرس يقرع بعنف فيدوي صداه في أرجاء المعتقلات و الغابات اللامتناهية و تنطلق فرق الأشغال الشاقة لاستئناف أعمال الأمس بفؤوسها و حبالها و أحزمتها و لكن دون أن يسمح لها بالغسيل أو الطعام . . .

و عاد حمد و رفيقه إلى الشجرة ذاتها التي لم يستطيعا يوم أمس أن يرميها أرضاً . . .

و ها هما الآن يستأنفان العمل بكثير من الجد و الاهتمام و قد عز عليهما أن يطول عصيانها.

و التفت حمد و هو يلهث في اتجاه رفيقيه الآخرين البعيدين و قد دوى صوت السجّان بشتيمة أعقبتها ضربة من حدائه على مؤخرة واحد منهما .

و أحس حمد بأن الدم يغلي في عروقه و بأن صدره أخذ يضطرم حقداً و أن الفأس تكاد تقفز من بين يديه لتضرب ذلك الجلاد في وجهه ضربة واحدة . . . و لكنه عاد إلى عمله الشاق الرتيب و هو يتمتم بينه و بين نفسه : إن رفيقي رجل مثلي و معه فأس . . .

و أهوى بكل قوته على قلب الشجرة فإذا الشرر يتطاير منها و تكاد الفأس ترتد إلى جبينه و خيل إليه أن الجذع قطعة من حديد و أيقن أن العنف لا يجدي معه بقدر ما تجدي المواظبة .

و عند الأصيل كانت الشجرة العملاقة تميل ثم تهوي في فرقة هائلة و هي تحطم الأغصان الضخمة والحبال و الأشجار الفتية وتفتح في وجه الشمس فرجة ضيقة طويلة لن تلبث أن يسدها تشابك الأغصان الوارفة والشجيرات النامية المتعانقة .

تراكض السجّان و السجناء و هم يصرخون بذعر و هلع و كأن العملاق الهائل يهوي على أعناقهم .

و ذعرت معهم طيور الغابة فأجفلت و هي تزعق , و تملمت الأفاعي الشديدة الكسل و قد ارتجت الأرض من تحتها و راحت تنساب هاربة أو تزداد تشبثاً بأغصانها .

و أحس حمد في المساء بجوع ملحاح فأغمض عينيه و راح يكرع المرق من الصحن بلا توقف و من ثم استسلم إلى إغفاءة لذيذة عميقة كانت تخمرها أطياف وطن حبيب و رنين مهجاج و بسملة صبية سمراء واسعة العينين تنكئ على نافذة بيتها و هي تنتظر من وراء الخيب قدوم حبيبها , و أغاني أم تهدهد طفلها في السرير الخشبي القديم :

خيّك راجع يا سلمان . . .

نام يا حبيبي نام

و عندما راح جرس المعتقلات يقرع بعنف مع خيوط الفجر الجديد كان حمد يتمطى و كأنه يرغب في العودة إلى النوم , إلا أنه استطاع أن يقتلع نفسه من بطانيته في وثبة شابة و انطلق و هو يفرك عينيه نحو مركز التجمع , بلا غسيل و بلا طعام .

و في الغابة كانت ضربات حمد تنهال على جذع شجرة ثانية في مثل صلابة الأولى و ضخامتها , عندما أحس بكف تربت على كتفه , فالتفت التفاتة شبه مذعورة و إذا هو وجها " لوجه أمام سجّانه و قد رفت بسمّة مشفقة على شفّيته الجافتين :

- من أي بلاد أنت يا رجل ؟ . . .

تطلع حمد بكثير من الاستغراب و هو يحاول أن يكتشف الغرض من ذلك السؤال , إلا أن النظرة المشجعة من السجّان جعلته يتمتم و هو يمسح العرق المتصبب من جبينه و عنقه :

- من سورية يا عريف , من بلاد الشام . . .

- كم سنة أنت محكوم بالأشغال الشاقة ؟ . . .

- بعشرين و عشرين نفي .

- كم سنة قضيت منها ؟

- سنة واحدة تقريبا" .

سكت العريف قليلا" و هو يتأمل ذلك الوجه الذي بدأ يشحب و الشاربين الغزيرين و الفأس التي كانت تستند عليها ذراع يطل منها أثر جرح قديم عميق ثم جمجم و هو يغرق عينيه في عيني حمد

- و هل تعتقد أنك تستطيع أن تنهي التسعة عشر عاما " الباقية حيا" و أنت تبذل هذا الجهد اليومي القاسي ؟

و أجاب حمد و هو لا يزال يمسح عرقه المتصبب :

أعتقد أن الموت أهون علي من أن تضرب قفاي ضربة واحدة بحذائك يا عريف ! . .

و انتظر حمد مع فجر اليوم الخامس من وصوله إلى المعتقل طنين الجرس العنيف و طال انتظاره إلا أن شيئا" من ذلك لم يحدث .

و مع إشراقة الشمس فتح الباب و وقف في أول الممر الطويل في المهجع أحد العرفاء و أمر السجناء بالوقوف و الإصغاء , و من ثم راح يلقي التعليمات المتعلقة بيوم الأحد , يوم الراحة الأسبوعية و هو يتوعد و يتهدد بأقصى العقوبات لأي مخالفة أو سوء استعمال .

و قبل أن ينصرف كان أربعة من الجنود يفتحون المهجع و هم يحملون أكداسا" من الأقمشة الملونة , و راحوا يوزعونها على السجناء الذين أمروا أن يظلوا في وقفة الاستعداد فوق بطانياتهم , و حتى يتم توزيع الألبسة الجديدة بالإضافة إلى الأحذية الخشبية .

و ما كاد التوزيع ينتهي حتى صرخ العريف صرخة دوى لها المهجع :

- سلموا ثيابكم و أحذيتكم كلها و البسوا الثياب الجديدة فوراً" . . . و بسرعة

و راح الرجال يتعرون و هم وقوف و من ثم راحوا يرتدون الألبسة الجديدة :

بنطلونا" و قميصا" من قماش واحد ذي دروب أفقية ضيقة حمراء و بيضاء , و قبعة واسعة من

القش .

و ألقى حمد نظرة على زيه الجديد و من ثم على منظر رفاقه المئة و هم يكومون ثيابهم القديمة

فكاد ينفجر ضاحكا" من ذلك المنظر الغريب و قد خيل إليه أنه في مستشفى المجانين أو في كهف من كهوف

الجن و العفاريت .

و من جديد دوى صوت العريف يأمر بأن يحمل السجناء ثيابهم إلى الم غاسل . و في باحة واسعة

عالية الأسوار تجمع السجناء , و بريق الاستغراب و الاستهجان يشع من نظراتهم و بسمة مداعبة مكبوتة ترف

على شفاههم , و توزعوا على مغاسل واسعة مكشوفة و انهمكوا في تنظيف ثيابهم و هم يتمتمون أغاني خافتة

كلها شوق و حنين و شكوى , في حين تمدد بعضهم الآخر يحرسون ثيابهم الرطبة المنشورة فوق الأسلاك الشائكة

أضيف إلى الغداء قطعة جن , و سمح للسجناء أن يتجولوا في الباحة الضيقة حول المغاسل , فكان

حديث و عناق و تعارف و سادت همهمة كدوي الخلية من حلقات متلاصقة متماوجة , ارتفع في واحدة منها

صوت خافت حزين :

و شفت عباد ما يعرف أصلها

وصلت بلاد جدي ما وصلها

و نلاقي العدا يوم الطراد! . . .

بلاد العرب لازم أن نصلها

الفصل الثامن

مضت الشهور الطويلة مملة مرهقة , جرس يقرع قرعا " عنيفا" مع الفجر ثم انطلاق نحو الغابات

العذراء بلا طعام و بلا غسيل ثم استراحة و غداء فعودة إلى الأشغال الشاقة في الأحراش فحساء من عدس كريبه

المذاق و الرائحة , فاستلقاء فوق بطانية في انتظار لسعة عقرب و غضة خفاش و طنين البعوض و طعن حرايبها

الدقيقة المحرقة السامة .

و في اليوم السابع غسل و حراسة و قطعة جبن إضافية , و ذات يوم أحس حمد بأنه مقبل على عمل جديد , فقد سار ذلك الصباح مع فرقة من اثني عشر رجلا" و توغلوا مسافة غير اعتيادية في الغابة العذراء .

أمروا بالتوقف فالإصغاء إلى التعليمات الجديدة : طريق بعرض ثلاثة أمتار يجب أن يشق خلال الغابة لجر الأخشاب نحو الميناء .

و راح العريف يرسم الاتجاه و يحدد نقطة البدء و يوزع السجناء فرقا" صغيرة متباعدة في خط واحد مستقيم .

و راحت الفؤوس تهوي فتقطع الحبال المتدلية و الشجيرات الصغيرة النحيفة و الأعشاب المتشابكة و من ثم تدوي ضرباتها رتيبة جافة فوق الجذوع .

و في غمرة العمل أحس حمد بأن حذاءه الخشبي الجديد يضايقه مضايقة شديدة و قد أدمى عقبه بحده القاسي , فانحنى يخلعه و يعود إلى العمل حافي القدمين .

تقدم السجنان و ربت على كتفه و هو يتسم ابتسامته القديمة المشفقة :

- اسمع يا دياب , أنت رجل كويس و أنا أشفق عليك و أنصحك , لا تخلع الحذاء من رجلك في هذه الغابات دقيقة واحدة : الأفاعي و العقارب و الحشرات السامة كثيرة , و التراب الذي يلصق بالقدم يسلخ جلده مثل حروق النار , و في الغابة حشرات مثل البرغوث تغرز تحت أظافر القدم و تدخل تحت الجلد , حتى العظم , تفقس و تخرج منها ديدان تثقب الجلد و تسبب المرض الشديد و أحيانا" تسبب قطع الساق أو القدم ...

فتح حمد عينين مشدوهتين و ظن أن في الأمر تهويلا" أو أسطورة إلا أن نظرات الحارس كانت صافية صادقة , ألم يقدم إليه سيكارة ذات يوم و يطلب إليه أن يستريح و يحدثه عن أسباب نفيه و عن أهله و وطنه و أمه و أخيه الصغير الذي لا يعرف اسمه حتى الآن ؟! ...

و طال العمل عدة شهور جديدة شاقة رتيبة لا يخفف من سأمها غير جماعة من القروذ الحمر تزعق صاخبة مكشرة عن أنيابها و هي تقفز رشيقة بين الأغصان تتأرجح بإحدى قوائمها حيناً " و بذيلها الطويلة أحيانا" كثيرة , أو تتلهى بتنظيف شعورها بعناية و اهتمام في فرجة تغمرها أشعة الشمس ال شديدة الدفء , تحضن صغارها و تلاعبها و تمسح لها بحنان و هي تتعلق بأعناقها متأرجحة .

ما أسعدها ! إنها في أوطانها و بين أهلها تلهو و تصخب . و لعلها تهزأ من أولئك العفاريت الغرباء الملونين الذين لا ينفكون عن مسح عرقهم المتصبب و هم يلهثون في عبوس صامت في ظل السياط و الشتائم . و لم يندر أن يطلق أحد الحراس النار على أفعوان من نوع (البوا) , كأنه جذع شجرة فيتدلى و هو يفتح شدقه الواسع المفزع ثم يسقط بجلبة رهيبة فوق الهشيم و الأغصان اليابسة المكدسة .

و لا تلبث أن تطل من خلف الجذوع السمراء وجوه نحاسية شبه آدمية أفزعتهما الطلقة المدوية فراحت تتطلع مذعورة و من ثم تنطلق هاربة تتصايح و هي تلمح من خلال الغابة الشديدة الكثافة عارية ملساء كالأبنوس تلمع تحت أشعة الشمس .

كان وجود هؤلاء الأدميين المتوحشين العرايا يثير فضول السجناء الذين كانوا يحاولون الاقتراب منهم إلا أنهم كانوا يفرون مذعورين كأنهم يهربون من وحوش مفترسة أو من أرواح شريرة أسطورية .

و لم يستطع حمد أن يدرك مدى سعادة هؤلاء الزوج البدائيين إلا أنه كان يحسدهم على حريرتهم الواسعة المطلقة و إن كان يشيح بوجهه بمزيج م ن الغيظ و الحياء عندما كانت تلوح من بعيد النهود السمراء العارية لتختفي في فراها الفجائي المدعور .

و مع الزمن شق في الغابة ممر جديد ظليل طويل , تكومت على جانبيه الأشجار و الأغصان و الألياف و سمح للسماء أن تطل و لشريط ضيق من الأرض أن تلمه أشعة الشمس لأول مرة منذ الأزل .

شعر حمد بأن عدد رفاقه يتناقص , بعضهم لم يعد حتى الآن و بعضهم يتردد على المستشفى و هم يشكون الملاريا بين الحين و الحين و حوادث العمل و مع ذلك فإن فرق الأعمال لم تتأثر تأثرا " ملحوظا" بذلك النقص فقد كانت الورش أو الفرق تزود دائما" بوجوه جديدة .

و في صباح مكفهر كان حمد و رفاقه يتوغلون في الغابة العذراء نحو الطريق بل الممر المستحدث , وهم يحملون حبالا " ضخمة طويلة و عددا " من الأحزمة الجلدية و السيور المختلفة الأشكال و المقاييس و فأسا" واحدة أو فأسين .

أمرت الفرقة بالتوقف أمام شجرة عملاقة توسدت الأرض منذ عهد بعيد , على ما يبدو , فقد كانت عارية من أوراقها و قد نمت حول جذعها الأملس المديد و تشابكت شجيرات و أعشاب , و حبال من ألياف الأشجار و جذورها الهوائية إلى درجة كادت تخفيها لولا ضخامتها .

و بدأ العريف يوزع أوامره و تعليماته بهدوء و وضوح في حين كان السجناء يقفون على جانبي الشجرة بصمت و تأمل كأنهم يحرسون نعش عملاق أسطوري .

أمر حامل الفأس بتحرير الشجرة المقطوعة من كل ما يتشبث بها من نبات و عندما بدأت ضرباته تهوي متسارعة , كان أحد الجنود يدرّب السجناء الباقين على ارتداء الأحزمة الجلدية استعدادا " لجر الشجرة العملاقة .

هذا السير يشد على الصدر , و هذا يربط بالكتفين , و هذا يشبك في تلك الحلقة الحديدية الواسعة .

و من ثم أعاد الشرح ثانية و هو يطلب من السجناء أن يقلدوا كل حركة من حركاته ...

و قفزت إلى ذهن حمد صورة خيول العربة في معسكرات دمشق و هو يشدها بالسيور الجلدية و حلقات الحديد و النحاس , و ها هم الآن في طريقهم لأن يتحولوا إلى حيوانات جر .

يفرقع الصوت فوق رؤوسهم أو على أفقيتهم و يصرخ بهم السجان مزمجا :

- هوس ... يو ...

تماما" كما كان حمد يحث بغليه و هو يلوح فوق رأسيهما بالسوط و يضرب به الهواء في فرقة مثيرة أو يصرخ بهما و هو يشجعهما أو يؤنبهما .

- هوس ... يو ...

و تذكر أنه كان رحيمًا " مع بغليه , رفيقًا" بهما و أنه لم يعمد يوما من الأيام إلى الانتقام أو القسوة رغم مشاكستهما العديدة و الحران في أخرج المواقف فهل يجد هؤلاء المساجين من حراسهم تلك الشفقة و الرأفة التي كان يعامل بها حمد خيوله

لا يدري .. و لكنه لا يزال يذكر أن أحد الحراس في الشهور الماضية قد ضرب بحذائه قفا أحد رفاقه و أن أكثر السجانين إن لم يكن كلهم يلوحون بالسياط و إن كان استعمالهم لها جهرا" قليل الوقوع .

و سوف يعلم حمد بعد حين أن عملية الجر الآدمية هي عملية مستحدثة فقد كان المنفيون يقومون بقطع الأشجار الضخمة و تهذيبها و توبييها منذ زمن بعيد , و كانت تستقدم أزواج من الثيران بل من الجاموس المعروف بالبقر الصيني تقرن أزواجا " بمثل هذه السيور و هذه الحبال و تبدأ عملية الجر يحثها السجناء بسياطهم و أصواتهم و سوف يعلم أن الاستغناء عن هذه الثيران عن علفها , و الاهتمام بها و نقلها من بلاد بعيدة و تربيتها قد تم منذ عهد قريب , منذ بضع سنوات , بعد أن تأكد المعمرين أن السجناء يستطيعون بأعدادهم الكبيرة بل المتزايدة أن يقوموا بهذا العمل و بعد أن أيقنوا أن المساجين يستطيعون أن يكونوا أكثر مرونة و أسلم تصرفا " أمام المصاعب و العراقيل التي تتعرض سير العمل و في المنعطفات الضيقة و المنحدرات , و من ثم فإن هذا النوع من العمل هو نوع من الأشغال الشاقة و في استخدام الرجال توفير واضح في الميزانية المخصصة لشراء الحيوانات المعدة للجر و شحنها و علفها و بناء المساكن المخصصة لها و الاستفادة من الأيدي العاملة التي كانت تخصص لحراستها , و الاعتناء بها و تنظيف زرائبها .

و عندما كان الرجال ينتهون من شد الحبال الثخينة إلى سيورهم الضخمة كان الحارس يمر عليهم واحدا" واحدا" و هو يتأكد من وضعية كل قطعة يتفحصها بعينه و يشدها بيديه و يصلح من شأن ما يحتاج منها , و هو يتمم مشجعا" حينًا" و مؤنبا" أحيانا" .

و بعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام , أمرهم بأن يخلعوا تلك الأحزمة و أن يكوموها أمامهم و من ثم عليهم أن يشدوها إلى أكتافهم و صدورهم من جديد .

و تقدم نحو حامل الفأس يتأكد من تخلص الشجرة العملاقة من كل ما يعيق انزلاقها , و من ثم أصدر بعض الأوامر و التعليمات و راحت الفأس تضرب من جديد في أسفل الجذع نفسه تفتح على ما يبدو فرصة يثبت فيها الحبل الثخين الطويل الذي لا يزال مكوما إلى جانب الشجرة كأنه بعض أفاعي الغابة الرهيبة .

و مع الفجر الجديد كانت الفرقة تنطلق نحو الشجرة التي كانت جاهزة للجر منذ أصيل الأمس ,
تكوم الرجال حولها و راحوا يلفون الحبل الثخين حول قاعدتها و يشبتونه في الفرضات وهم يتصايحون :

- هات من عندك ... خذ ... لف عندك ...

في مزيج من الفرنسية و العربية فقد كانت الفرقة , كل الفرقة من العرب ذوي العينين السوداوين
الواسعتين .

ثم راحوا يشبتون الأحزمة الجلدية و السيور و الحبال التي أمضوا بعض نهار أمس و هم يتمنون
على استعمالها .

تقدم العريف يتثبت من وضعية تلك الحبال و الأحزمة و من ثم راح يقرن الرجال واحدا " وراء واحد
في فرقتين تألفت الواحدة منهما من ستة رجال تماما" كما تربط الخيول في العربات العسكرية الثقيلة الحمولة .

- اسمعوا ... هذه الشجرة ضخمة و لا يمكن جرها دفعة واحدة يجب أن تزحزح ثم تسحب شبرا "
... شبرا" ... مرة واحدة و شدة واحدة تشدون عندما أصرخ , هوس ... يو ...

انتبهوا ... استعدوا ...

تشبّت الرجال بالحبال المشدودة إلى سيورهم و إلى الجذع العملاق و هم يحسون أنهم على أبواب
مرحلة من الأشغال الشاقة شديدة القساوة , يرغم فيها الإنسان على الانحدار إلى مرتبة حيوانات الجر . رفع
العريف يده ملوحا" بها في الهواء و صرخ صرخة حادة طويلة :

- هوس ... يو ...

و تحرك الرجال تتثبت أحذيتهم الخشبية القاسية بالأرض و تشد سواعدهم و أيديهم شدا " عنيفا"
على الحبال , و تنحني مناكبهم في حركات أمواج البحر المضطرب و تتقلص عضلاتهم , و يحقن الدم في وجوههم
التي ازدادت سمرة و قسوة , و يتفجر العرق غزيرا " لزجا" كريها" , و تنطلق من الصدور و الشفاه همهمات
كأنها خوار خافت بعيد .

توقف الرجال -- الثيران و تطلعوا إلى الورا بعيون حاقدة و صدور لاهثة ... كانت الشجرة
العملاقة جاثمة و كأنها هي مسمرة في الأرض , و قد خيل لبعضهم أنها تزداد تشبثا" و التصاقا" بها .

تقدم العريف من جديد يفحص الشجرة المستلقية و يتأكد من أنها قد تحررت من كل ما يعيق بها و
بحركتها , ثم عاد يأمر الفرقة بالانتباه و الاستعداد :

- هوس ... يو ...

و شد الرجال من جديد و هم يتصايحون و يحث بعضهم بعضا , و هم يتجنبون أن تهبط السياط
على أفقيتهم و قد بدأت تفرقع في الهواء مهددة , و ارتفع صوت العريف مزمجرا" :

- شد ... اسحب ...

تقلقت الشجرة الضخمة الجافة . و سمع لحركتها البطيئة ما يشبه صوت الانهيار المفاجئ الخفيف , و انزلت قدما أو أكثر و راحت تتشبث من جديد بالأرض البكر .

- يكفي ... إلى الغداء ...

و عندما بدأ الرجال يخلعون أحزمتهم و يتخلصون من الحبال , كانت بعض الأفاعي تتسلل إلى جحور جديدة و كانت العقارب و عشرات الأجناس من الحشرات و الهوام تنطلق هاربة في شتى الاتجاهات .

و في اليوم الثاني كانوا يقطعون بعض الأغصان الأسطوانية لتسهيل انزلاق الجذع الجاف الضخم و هم يشدون , بإيعاز من العريف , بالحبال و السيور شدا" إيقاعيا" .

و في نهاية اليوم كانت الشجرة قد تركت وراءها ما يشبه اللحد بجدران من أعشاب و جذوع و ألياف , و قد تكدست حوله الجذور و الأغصان الحديثة القطع .

و في الأيام التالية كانت فرقة الجر تتقدم شبرا " شبرا" و هي تسحب خلفها العملاق الهامد الأملس لتسلمه إلى فرقة أخرى تركزت في قلب الأدغال .

و هكذا راحت هذه الفرقة من السجناء تتابع عملها اليومي المضني تجر أحمالها الثقيلة لاهثة مجهددة و أشباح السياط و السجون المنفردة المرعبة تتراقص أمام أعينها المسهدة .

و قد يحدث أن تكون الشجرة المقطوعة أئمن خشبا" و أخف ضخامة و في هذه الحال كان على الفرقة أن تحملها على أكتافها , كي لا تخدش , في رتل أحادي أو مزدوج و من ثم كان عليها أن تتقدم في كل خطوة بإيعاز و أن تتوقف بإيعاز .

- هوس ... يو ...

و تقدمت الفرقة ذات يوم في أرض منحدره كانت قد بللتها الأمطار الاستوائية السخية , و فجأة زلقت بعض الأقدام رغم الحذر الشديد و راحت الفرقة تترنح و هي تتحاشى أن تنسحق تحت حملها الثقيل .

و راح الرجال و الحرس يتصايحون و ساد الهرج و الرعب , و انطلقت الأوامر بالتوقف حادة حازمة إلا أن التزجر لم يهدأ و الأقدام لم تستطع أن تثبت فوق تربة المنحدر الرخوة , و لاذ واحد ثم آخر بالفرار و انهارت عزائم بعضهم , و إذ بالجذع يهوي في ضجة رهيبه بين الأنين و الصراخ و صيحات الفزع الداوية .

أعطيت إشارة الاستغاثة : خمس طلقات متوالية أعقبته خمس طلقات أخرى و إذ بالفرق القريبة تتراكم لاهثة بين الأدغال في اتجاه صوت الرصاص و قد اختلط السجناء بالحراس في شيء من الفوضى الصاخبة .

كانت الشجرة الضخمة الملساء مستلقية هامدة فوق عدد من الرؤوس و الأيدي و الأقدام المهشمة و قد غرزت مقدمتها في الأرض الرطبة .

و اختلطت صرخات الاستغاثة و الأنين المتواصل بأوامر الحراس الحادة و أصوات الرجال و هم يتنادون لرفع الجذع الرهيب المجرم .

الفصل التاسع

كانت غرفة حمد في المستشفى تطل من بعيد على السور المرتفع الضخم حيث تلمع الأنياب الزجاجية الملونة الحادة الشرسة , و حيث تتحرك مئات من المخلوقات الناعسة و تختفي في ظلال الرعب و الجوع و الإرهاق و الحنين .

و خلف السور و الأبراج تمتد الغابة العذراء داكنة جامدة , تستلقي أشعة الشمس باسترخاء فوق سطحها اللامتناهي , و في الأفق البعيد العالي لا شيء سوى السماء زرقاء صافية لاهبة .

و تحرك الرأس الغارق في الضماد , في جهد واضح , و تطلعت عينان بأجفان قائمة منتفخة تتفحصان باستغراب و ألم المهجع الجديد المغمور بأمواج النور الدافقة و الهواء الدافئ الطليق .

و بدا حمد يستعيد مأساة الأمس . الشجرة تترنح فوق الأعناق ثم تهوي فتسحق و تهشم .

و حرك ذراعيه تحت الغطاء الأبيض فتحركتا ببعض الصعوبة و حرك أنامله واحدة واحدة فأيقن أنها سليمة إلى حد ما , و تحسس أعلى ساقيه فإذا بكفه تصطمم بقطع من الخشب تشده شدا " وثيقا" و عندما حاول أن يديه قدمه خيل إليه أن ساقه قد تحولت إلى قطعة من حجر و أحس بألم صارخ في أضلاعه , فأغمض عينيه و هو يخنق أنات ترددت في صدره و راح رأسه يتلوى في حركة بطيئة و فوق أجفانه سحابة من تبرم و يأس .

و من جديد فتح عينيه و راح يجوب بنظراته المتعبه جنبات الغرفة المشرقة الواسعة .

كلن السقف في بياض الياسمين و قد تدلى منه مصباح و كانت الجدران نظيفة لماعة تكاد تشرق في وجه الأشعة الدافقة , و في زاوية منها علقت صورة لملاك بجناحيه الناصعين يبتهل بخشوع , و على شرفات النوافذ الواسعة المغمورة بالضياء اصطفت بعض المزهريات و قد تفتحت فيها براعم دائمة الابتسام .

كان حمد يظن نفسه حالما " يجوب عالما" آخر عندما أيقظته أنه عميقة أعقبها حشجة متقطعة في السرير المجاور .

كان الرجل جريحا" على ما يبدو فقد كانت العصائب تغطي رأسه و ذراعه الممتدة فوق الأغصان كأنها قطعة من خشب الحور , و لعله بعض رفاق مأساته .

لم يستطع أن يتبينه , فقد كان غارقا " في الضمادات كأنه في كفن حتى عيناه كانتا تختفيان تحت الأجفان الداكنة الحمراء المتورمة .

و خلف سريره جاره الجريح امتدت أسرة أخرى لم يستطع أن يتأكد من عددها و من وضعية مرضاها . أما جاره الآخر فكان يبدو أحسن حالا" و إن كان شحوبه و هزاله مخيفين .

و تنبه حمد إلى وقع خطوات ناعمة و حفيف ثوب فضفاض يتقدم من سريره و أدار رأسه بصعوبة صوب القادم الجديد , و راح يتأمل القبعة الواسعة كأنها شراع يرسو فوق الثوب الواسع بلون البحر الهادئ , و الوجه الصبيح الطلق ببسمته المتحفظة , و نظراته البريئة المشجعة , كم هو شبيه هذا الملاك بالملائكة في مستشفى السويداء بشعره الذهبي و عينيه الزرقاوين بلون السماء . . . لعله هو . ؟ قد يكون . . .

و عندما اقترب و انحنى فوق رأسه باسم " بدت العينان سوداوين واسعتين أما الشعر فلم يبد منه غير خصلات شديدة النعومة فاحمة لامعة كالابنوس .

- بونجور دياب .

حاول حمد أن يهز رأسه في حركة شكر و رد تحية و أدار لسانه ثقيلًا في فمه :

- بونجور . . .

و لم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة و قد تذكر فجأة أن للراهبة و للممرضة اسما " خاصا" بها غير مدموزيل و لم يحاول أن يجهد نفسه في التفتيش عنه فقد كانت الآلام الشديدة تعترضه رغم أناته المختنقة .

- أنت كويس . . . الحمد لله بالسلامة .

- شكرا" .

و فتح فمه يعرض على ميزان الحرارة في حين كانت اليد الناعمة تشد على معصمه شدا " رقيقا" عميق الحنان .

و تقدم ضابط بأشرفته الذهبية الثلاث و قامته المديدة و الوجه الأشقر ال حليق , و قد تركزت فوق عينيه نظارتان على غاية من الصفاء في إطار ناعم من ذهب .

تحدث الضابط و الممرضة حديثا " غير قصير لم يفهم منه حمد شيئا " كثير فقد كانت لهجة الضابط كزقزقة العصافير المرحة إلا أنه استطاع أن يفهم منها أنه هو محور الحديث و أن جراحه قابلة للشفاء .

و عندما انتقلت الراهبة إلى السرير المجاور كان حمد يحس بشيء من العزاء و الراحة .

كان الجرس الرهيب يقرع من بعيد قرعه المتواصل المعتاد مع ضوء الفجر , عندما أحس حمد بوقع خطوات ثقيلة تقترب من سريره , و من ثم تقدم جنديان يحملان محفة مفتوحة , خلف ممرض لا يزال يتشاءب و هو يفرك عينيه و يتحسس أزرار منزره الأبيض . و انحنى الرجال فوق السرير المجاور يلفون الجثة الهامدة بالغطاء الأبيض و يلقونها بشيء من الإعتناء و كثير من البرودة فوق المحفة و من ثم ينطلقون بها في صمت .

أشاح حمد بوجهه و هو يحس بأن مأساة قد انتهت لتبدأ مأساة أخرى إلى جواره . . . ما أفسى الموت في ديار الغربية , لا دمة تذرّف و لا تحية وداع و الأهل في الوطن البعيد . . . قد تكون الأم لا تزال تنتظر و هي تغزل الصوف و تغني في أعماقها أغاني الشوق و الحنين مثل أم حمود , عندما يكون التراب في بقعة ثانية مجهولة من بقاع العالم ينهال على الجثة المشوهة الهامدة .

و قد تكون الزوجة تحلم باللقاء في نافذة بيتها المغمورة بضوء القمر , و قد يكون الأطفال الذين كبروا يملؤون البيت مرحا" و صخبا" و هم يرحبون بعودة والدهم المرتقبة , عندما تكون الحفرة المرتجلة قد اختفت في ظلال الأعشاب الإستوائية السريعة النماء .

و من يكون هذا التاعس ؟ قد يكون صديقا " جديدا" أو رفيق عبودية , و قد يكون من بلاده هو و من أي بلد من بلدان العالم المستعبد . . . إنه لا يدري . . . يتمنى أن لا يكون هو (سي عياش) الذي كان دائم الحنين إلى طفليه الصغيرين في قرية من قرى الريف المراكشي و الذي كان يتمتم دائما " في أوقات الاستراحة النادرة :

يا ولدي يا فطيمة
حرام تعيشي يتيمة
بكره أبوك
يعود يا بنية !..

لم يستطع (سي عياش) أن يقص على حمد تفاصيل قصته , فالمراقبة و الريبة و أوقات الراحة القليلة القصيرة لم تكن تشجع على الاسترسال في الأحاديث , إلا أنها كانت شبيهة بقصة حمد في أعماقها : تهمة بمحاولة نسف خط إمدادات الجيش الفرنسي لصالح الثوار في مراكش , فمحاكمة صورية فنفي و أشغال شاقة .

كان سي عياش رغم تظاهره بالطاعة و الاستسلام على غاية من الشجاعة و الحساسية , دينا" لا يفتقر عن ذكر الله و إن كانت الفرص المتاحة للصلاة متباعدة و مع أن قبلته كانت في الغالب قبله تقديرية إلا أن ذلك لم يكن يخفف شيئا" من وجدّه و حماسته الدينية .

حاول سي عياش كثيرا" أن تسمح له إدارة المعتقل بإقامة صلاة الجماعة في فترة استراحة يوم الجمعة .

إلا أن محاولاته و محاولات أمثاله ذهبت كلها عبثا" . . . إنهم أشقياء لا تصلحهم العبادة و التضرع بقدر ما يصلحهم العمل الشاق الدائم في الغابات العذراء ! ..

و تذكر حمد الهدية الفريدة التي وزعها سي عياش على رفاق المهجع في أعقاب صيامه المضني في جو يزيد العمل المرهق المتواصل ا ختناقا" و ضيقا" , فقد وصلت إليه من أهله علبة بحجم الكف من الزيتون الأخضر , أبي أن يحتفظ بها لنفسه , بل راح يفرقها حبة حبة على رفاقه :

زيتون في معتقلات الغويان ! . . . شيء لا يصدق ! . . .

و تذكر حمد أن رفاقه راحوا يمشغون الحبة مضغا" طويلا" يتلذذون بها كأنهم في جلسة من جلسات القات في اليمن , أما هو فقد دس الحبة في يده ليشمها مرة بعد مرة قبل أن يغفو . . .

أما جاره الجديد ذو الوجه الشاحب الحزين سي مسعود فقد كان يتكئ غالبا" على حافة سريره يسند رأسه بيد مرتجفة و يسبح في شبه غيبوبة تنتهي بارتعاش متقطع مفاجئ يهتز له حتى السرير و ترتجف الأغطية ارتجافا" مفزعا" , و ينطلق من الفم المزبد هذيان غريب , مزيج من لهجات فرنسية و عربية و كلمات مبتورة أو مشوهة لا أحد يدري لها معنى أو أصلا .

إنها البرداء ! ... الملاريا ! ...

لم يسلم منها أحد حتى ا لحراس الذين كانت تشاهد ناموسيا تهم من الكوى الصغيرة المغطاة بشريط المنخل .

حاول حمد غير مرة أن يحدّثه إلا أن الرجل لم يكن يحسن التعبير باللغة العربية , حتى اللهجة المغربية الجزائرية التي كان حمد قد تعودها كانت أيضا " صعبة على سي مسعود , و كان يود لو استطاع أن يبادل جاره الحديث بالفرنسية .

و استطاع حمد أن يفهم منه خلال الفترة الطويلة التي قضاها إلى جانبه بعض الخطوط العريضة لمأساته .

إنه جزائري , و أكثرية المغضوب عليهم في الغويان الفرنسية جزائريون .

إنهم في نظر القيادات العسكرية الفرنسية إجمالا" غير إنضباطيين , رؤوسهم كبيرة , و طباعهم شرسة , و الجزائر بالنسبة لفرنسا جزء من أرضها , و شعبها جزء من الشعب الفرنسي , و خدمة الشعب الفرنسي إلزامية على الشاب الجزائري و هو يساق إلى الخدمة سوقا" و إن لم يكن متحمسا " و لا مؤمنا" بتلك الخدمة . و قد اكتشفت استخباراتهم أن بين العسكريين منظمات سرية تدعو إلى استقلال الجزائر عن فرنسا و إبراز الشخصية الجزائرية , و كانت هذه التهمة كافية لأن تحمل إلى المنافي تلك الأعداد الضخمة من الشباب , ومع الزمن بدأ حمد يحس بالروابط العميقة التي تربط هؤلاء المنفيين المعذبين .

شعوب مغلوبة محكومة بقوة السلاح تريد وتحاول أن تكون حرة فتلقى في سبيل ذلك ما تلقاه من دمار و تشريد و دماء و دموع و اضطهاد .

و مع الزمن بدأ يحس بأن خصم هو لاء المنفيين جميعا" واحدا" , و إن مصدر مصائبهم و نكباتهم واحد .

و سمح لحمد بأن يستعمل العكاز فكان يقضي أكثر أوقاته متنقلا" بين المرضى يؤاسيهم و يستمع إلى أحاديثهم و تمنياتهم , و كان يحس بشيء من العزاء و السلوى و هو يتبادل الأحاديث و الذكريات مع الصطايقي زميله في مأساة الشجرة المجرمة و الذي يعتقد أنه الوحيد الذي لا يزال حيا " مع حمد من الرفاق الثمانية الآخرين .

و لاحظ حمد بكثير من المرارة أن ذراع الصطايقي اليمنى قد بترت و أنه كان حزينا لا يبتسم و لا يسلو .

و عندما كان حمد يحس بالملل من النظر إلى أنياب المعتقل الزجاجية و الأبراج المتباعدة المرتفعة , كان ينتقل إلى النافذة المقابلة المطلة على الطريق الموصل إلى الميناء البعيد المختفي خلف الهضاب المكفنة بالخضرة الداكنة .

كان الطريق بل الممر مقفرا " في الغالب , إلا أنه كان يخصص أحيانا " بقوافل السجناء بقبعات القش الواسعة و الثياب الغريبة المخططة كأنها جلود الحمر الوحشية يسوقهم حراسهم نحو الميناء لنقل الأرزاق على ظهورهم أو في عربات صغيرة يدفعونها أو يجرونها بأنفسهم .

و يبدو أنهم كانوا على شيء من ألم رح فقد سمح لهم أن يغنوا و يتضحكوا و هم في طريقهم نحو الميناء .

فلمحظوظون من السجناء هم الذين كانوا يدعون إلى رحلة ال سخرة التي كانت شاقة ككل الأعمال الشاقة في الغابة العذراء إلا أن هناك تعزية كبرى في التطلع إلى البحر الواسع الواسع الذي كانت تختفي وراءه بعيدا " بعيدا " رائحة من الوطن الحبيب , و إلى المركب الذي ربما عرج في رحلته الطويلة على ديار الأحبة و الأهل , و إلى الناس الذين يتطلعون من بعيد إلى هؤلاء العفاريات الملونين و هم منهمكون في العمل.

و ذات يوم كان حمد يتكئ بيد على حافة النافذة و بال ثانية يشد على عكازه و هو يتطلع عبر الممر الطويل صوب أفق الميناء , عندما ملأ أرجاء الغابة القريبة خوار فظيع من البقر و جلبة عالية و صراخ و نداءات مختلفة اللغات و الأصوات و الأبعاد .

كان القطيع - على ما يبدو - قد قرن بعضه إلى بعض بحبال طويلة , وكان يسير في خوف و حذر شديدين لا يتحرك إلا بالحث و العصي الطويلة التي كانت تنهال على قرونه و ظهوره , فالغابة الظليلة المتشابكة , و الممر الضيق , و هؤلاء الرعاة الجدد بألوانهم المثيرة , و الجو اللاهب , كل ذلك كان يوحي لهذا القطيع الغريب بالاضطراب و الفزع , إلا أنه عندما بدأ يدخل الباحات العالية و الأسوار راح يشعر بالطمأنينة فأخذ ينبش الأرض بأظلافه الضخمة مثيرا " زوابع صغيرة من التراب ما عتمت أن تكاثفت , فتراكض عمال المستشفى يغلقون النوافذ بسرعة و هم يتصايحون , فتختفي أصواتهم في هزيم من خوار القطيع .

و استلقى حمد فوق فراشه وهو يستعيد هذا المشهد الغريب و يتساءل : ترى هل عدلت إدارة المعتقل عن استخدام السجناء في أعمال الجر , و عادت إلى طريقها السابقة في استخدام البقر الصيني ؟ ...

- حبذا . . . ولكن الذي رآه حمد و الذي ظل يتأمله بانتباه شديد قبل أن تزيحه إحدى الممرضات بلطف عن النافذة , لم يكن صالحا " في أكثريته لأعمال الجر , فقد كانت الأبقار إما عجولا " صغيرة أو حيوانات مسنة عجفاء . و في اليوم الثاني كانت تقدم للمرضى شرائح من اللحم الطازج .

و في المساء كانت تنصب في زاوية من زوايا الغرفة الواسعة شجرة صنوبر صغيرة راحت الراهبة ذات القبعة الشراعية البيضاء تقضي ساعة أو أكثر وهي تعلق فيها الشموع و النجوم الملونة و المصابيح الصينية و تبني بيدها شبه مغارة نثرت فوقها شذرات من القطن الناصع و راحت ترتب أمامها و في دا خلها تماثيل صغيرة

لبقرة و حمار حول سرير لطفل صغير يصلي فوق رأسه بخشوع شيخ بلحية صغيرة و امرأة بثياب قرمزية ضافية ومنديل أبيض ينسدل حتى القدمين .

كان بعض المرضى لا يعون شيئاً" من كل ما يحدث .

أما الآخرون فقد كانت أبصارهم معلقة بي دي الراهبة و هي تنقلها برشاقة من غصن إلى غصن و من تمثال إلى آخر .

و بعد أن ألقت نظرة رضى على شجرتها اللطيفة , التفتت و الابتسامة الوقورة ترسم على شفيتها الورديتين نحو القاعة الواجمة إلا من أنه موجه ثم أحنث رأسها إحناء خاشعة و راحت تتكلم بصوت بدا ناعماً " رفاقاً" كالجدول الجبلي الصغير , ثم راح يعلو و يعلو في مزيج من الخشوع و الابتهاال :

- اليوم يولد السيد الغادي , عزاء الفقراء من مغارة متواضعة لبيت لحم , ملوك الممجوس يتبعون النجم الفضي حاملين الهدايا إلى الطفل الإله . . . ليكون الرب نوراً" للتائبين و بلسماً" لجراح المعذبين , و ليكون لكم أنتم في هذا اليوم بشائر من محبة و رجاء , و ليكون لكم في احتمال متاعب الأرض مكافأة من نعمة السماء . . . !

لم يستطع حمد أن يفهم شيئاً " كثيراً" من هذا الخطاب القصير و لكنه أحس بأنه صلاة و ابتهاال , لم يلبث أن أعقبه دخول أحد الحراس و هو يحمل عدداً " من الهدايا الصغيرة راح يوزعها على الأسرة بشيء من السرعة و عدم الاهتمام .

علبة سكاير ميليا قطع صغيرة من الحلوى , صورة صغيرة ملونة . . .

و تقدمت الراهبة الوديعه توزع مع بسماتها كلمات التشجيع و المواساة, و عندما كانت تغادر الغرفة تودع بالتفاته باسمه كان حمد يتوكأ على عكازه و يقترب من صاحبه الصطايفي الذي كان منهمكاً" في فتح علبة الميليا .

كان الصطايفي يسند العلبة إلى ذراعه المبتورة و يثبتها بذقنه و يتحسسها بأنامل ه و قد بدا شديد الاهتمام بها شديد الحرص عليها , فهي منحة قد لا توجد بها أو يمثلها الأعياد البعيدة المقبلة .

كان قد تناول سيجارة فأشعلها له حمد و هو يسأل عن معنى خطاب الراهبة .

كان الصطايفي يتقن الفرنسية , وقد عاش فترة عاملاً" في مناجم الشمال بفرنسا فلم يجد صعوبة في أن يشرح لحمد شيئاً " عن الميلاد و عن أعياد الميلاد و أن يوضح بعض المعاني التي قصدت إليها الراهبة في صلاتها الخاشعة ثم تمتم و هو يتلفت غاضباً" في حذر و خوف :

- خطاب جميل , و صلاة صادقة إنها تستحق التقدير و لكن . . . و لكن . . . آه لو استطاعت أن تقول لأبناء جنسها بعض ما قاله السيد المسيح للعشاريين و الفريسيين . . .

الفصل العاشر

ما كاد حمد يتماثل للشفاء حتى أعيد من جديد إلى السجن ليفسح مجالاً في المستشفى لمريض جديد بالملايا أو محطم تحت جذع , أو ملدوغ , أو محتضر في أعقاب بعض الأمراض الإستوائية الكثيرة الغريبة .

كان السجن الجديد شبيهاً " بالسجن القديم , جدران سميكة و كوى ضيقة و سقف من حديد تعلوه صفائح من زنك حتى خيل إليه أنه هو نفسه لولا أن بابه كان يواجه مشرق الشمس و لولا أن الأسرة هنا تختلف عنها في المهجع السابق و لولا أن الوجوه الجديدة هي خليط من وجوه سبق له أن تعرف إليها و أخرى لم يتأكد من معرفتها أو الالتقاء بها .

خطا حمد خطواته العرجاء من باب المهجع الطويل بين صفيين من الأغشية البيضاء المعلقة على ارتفاع قليل وقد شدت إلى الجدران بحلقات من حديد و حبال قصيرة تكومت تحتها صناديق قديمة و حديثة صغيرة مغلقة و أحذية من خشب , وقد استلقى فوق تلك الأغشية عدد من الرجال الذين راح بعضهم يتطلع إلى القادم الجديد , في حين لم يعره الباقون أدنى اهتمام و قد كانوا منهمكين في لعبة اللوتو التي سبق لحمد أن شاهدها في سجون فرنسا .

- أهلا حمد ... أهلا ...

و قفز من بين الرجال المتربعين على الأرض الخشبية , شاب طويل عريض المنكبين , واسع العينين , و قبل أن يسمح لحمد بأن يلمح وجهه الذي طفح بالسرور العارم المفاجئ لم مزوج بشيء من الأسى العميق , كان يطوقه من عنقه بساعديه السمرأوين المفتولتين , و يغمر خديه و شاربيه بالقبلات و الدموع ...

- يونس ...

و حمله يونس بين ذراعيه و ألقاه برفق فوق أحد الأغشية البيضاء و راح كل منهما يمسح بإحدى يديه دموعه المتساقطة في صمت , و قد شبك اليد الثانية بيد الرفيق الصديق القديم .

كان حمد يتوق إلى أن يلتقي بابن بلده يونس أنيس جربوع الذي كان يعرف أنه هنا في سجون الغويان الواسعة المتعددة , و يتوق إلى التعرف بحسين العاقل من قرية المجدل المجاورة و مزيد عز الدين من قرية السجن المطلة على المزرعة و السويداء و الذين سبقاه إلى هذه المنايا الرهيبة.

ها هو وجهها لوجه أمام يونس الذي انحنى فوق صدره باسم " وهو ينشج , ثم استلقى بدوره على سرير الخام المجاور و لم يقطع حديثهما الخافت الطويل غير طنين الجرس العنيف المتواصل مع خيوط الفجر الأولى .

أعفي حمد مؤقتاً من الأشغال الشاقة في الأحرش و كلف بمهمة فتح الأبواب في مهاجع السجن .

أصبح لقبه الجديد المؤقت (بورت كلاي) أي حامل المفاتيح , و صار عليه أن يستيقظ مع الجرس أو قبل الجرس يفتح المهجع و يخرج المساجين تحت إشراف الحرس و يتأكد من أن الأسرة و الصناديق و الخزائن

مرتبّة و يحمل الماء إلى المهاجع يملأ البراميل الصغيرة ثم يغلق الأبواب و يتمدد في سريريه إذا لم يكلف بهمام أخرى في انتظار المساء .

عرّفته مهمته الجديدة بعدد آخر من المعتقلين من بلاد الشرق و من افريقيا , أنه لم يعد يذكر منهم إلا أسماء قليلة , و إن كان يذكرهم جميعاً " بكثير من التفاصيل و كثير من الحنان و المودة و الإشفاق , و هو لا يزال يذكر نهاية بعضهم بغصة و ألم :

- شكيب محمد عبد الصمد من عماطو ر لبنان متهم بقتل ضابط فرنسي في باحة سراي البرج ...
نودي عليه من المهجع مع قرع الجرس العنيف في الفجر الباكر و شاهدوه رفاقه يسوقه الحارس إلى خارج المعتقل , و لم يعد حتى اليوم .

أين هو ؟ ما هو مصيره ؟ لا أحد يعلم سوى الحارس الذي ساقه و ر بما علمت إدارة المعتقلات التي سجلت إلى جانب اسمه و رقمه دون أي تفصيل كلمة : مفقود .

لم يكن تعبير : مفقود , غريباً عن سجلات منافي الغويان , فقد لا يندر أن يفر بعض السجناء أملاً في الحصول على الحرية بأي ثمن , ثم يعود بعضهم و قد أرهقه الجوع و المرض و اليأس , و يختفي البعض الآخر في أحضان الموت أو أحضان الغابات إلى حين و قد لا يندر أيضاً أن يسوق الحارس المعربد الحاقد المنتقم لسبب أو لآخر خصمه السجن و يفرغ في رأسه رصاصة غ ادرّة ثم يدعي أنه أقدم على ذلك دفاعاً عن النفس يشجعه على هذا الإدارة المتساهلة التي كانت تعتمد بدورها إلى مثل تلك الإجراءات الغادرة .

و ها هو يدعى إلى المستشفى و هو يرتجف من البرداء ليقف أمام جثة مكفنة بغطاء أبيض كان الطبيب , بنظاراته الذهبية الشديدة الصفاء , ينقل نظره بين الجثة و بين السجن المتكئ على عكازه و هو يرتقص من الألم :

- يونس أخوك ...

- نعم ...

قالها و هو يحس بجفاف مفاجئ حاد في حنجرته و يشعر بأن فاجعة مؤلمة تهدم ما أبتت البرداء من عزمه , إلا أنه عاد فتمالك نفسه و هو بين مصدق لظنه و مكذب .

- هل له أعداء , و من تظنهم ؟

لا ... يونس ابن حلال ... يحب رفاقه و رفاقه يحبونه .

و لم يستطع أن يتابع الكلام فقد توقفت الألفاظ على حافة شفّيته المرتجفتين الجافتين و انسابت الدموع تتغلغل في شارببيه الفاحمين و تنحدر حتى العنق .

و عندما رفع الطبيب الغطاء عن الوجه المسجى , ظهرت آثار جرح حديث يحرق البارود حافته , يخترق سطح الجبين , و يقطع أرنبة الأنف ليفتح ثغرة واسعة تغمرها الدماء في أسفل العنق .

- يونس : آخ يا خيي ...

و لم يعد حمد يعي شيئا " سوى أنه عرف فيما بعد أنه ظل يهذي عدة أيام في المستشفى , و يردد أناشيد حزينة عالية النبرات حيننا " خافتة أحيانا" و قد وقف حوله بعض العمال و الحراس و هم يراقبونه بين المشفق و هازئ .

أما عن مزيد فقد ترمى إليه أنه نقل إلى العمل في مناجم الذهب في معتقل بعيد ناء .

قيل أنه هرب إلى أمريكا و قيل أنه فقد , و عندما جاءت زوجته بعد عشرين عاما " تسأل حمد عن مصير زوجها كان ولداها الشابان ينصتان باهتمام إلى بعض الشائعات التي راجت في المعتقل عن اختفاء مزيد . و إلى اليوم لا تزال الزوجة الحزينة العجوز و الأحفاد و الوالدان ينتظرون بأمل دائم التجدد عودة السجن المفقود ...

ألم يقطع الناس الأمل من عودة حمد ؟ و هل صدق إلا أقلهم أنه قد عاد حيا" يرزق ؟ ..

و أما رفاقه من المغاربة فلم يكن مصيرهم يختلف كثيرا " عن مصير شكيب و يونس و مزيد فطالما شهدت شواطئ شمال افريقيا قوافل السجناء الشباب مشدودي الأيدي , حليقين تسوقهم الحراب نحو السجون الحربية المتجولة , و من ثم نحو المجهول , و لكن ندر أن شاهدتهم يعودون و إن عاد الأقل فعاجز مشوه أو مهدم عليل ...

و استطاع حمد مع الزمن و بشيء من المكابرة أن ينتصر على المرض و إن يعيد إلى ساقه حركاتها شبه الطبيعية .

لم يستسلم إلى اليأس و لم يركع أمام تحدي الطبيعة و تحدي المعمرين , و قد كان يحس في ساعات الضيق و الاختناق بضوء من رجاء يشع في نفسه و يبعث فيها الاطمئنان و الثقة بالله و بالقدر خيره و شره .

لم يكن حمد يعرف شيئا" عن الكتب و التعاليم الدينية على اختلافها , لم يدخل كنيسة و لا جامعا , و لا مدرسة , و لم يسمع خطبة , و لم يعلق في ذهنه عن المعتقدات إلا ما يتردد على ألسنة الناس من أحاديث عابرة .

و مع أن الناس في بلده يجتمعون للصلاة , و مع أن والده كان يذهب في الليالي للاجتماع برفاقه من الأجاويد الشيوخ يرددون الأدعية و الأناشيد الدينية إلا أنه لم يحاول أبدا" أن يهتم بذلك .

كان يكفيه أن يؤمن بالله واحد يأمر بالخير و ينهي عن الشر . أما الآن فقد أضاف إلى

إيمانه البسيط السابق إيمانا " جديدا" , إيمانا" بأنه يجب أن لا يستسلم إلى اليأس , يجب أن يحيا صابرا" و أن يعود إلى وطنه و إلى أمه .

بهذه الروح قابل حمد الإغراءات الجديدة التي ب دأت تغزو مهاجع الأشقياء المحرومين فقد أخذ بعض السجناء يتلقون رسائل شخصية من فرنسا , و عندما كانوا يفتحونها كانت أنظارهم تسمر على ابتسامة

فتاة بشعر قصير أو مسترسل ، و بوجه يختلف في صفائه و رونقه إلا أن النظرات كانت غالبا " واحدة : نظرة تتحدى في نعومة و إغراء .

عروض زواج من فتيات بأعمار و أطوال و ألوان و ثقافات مختلفة و أوضاع اجتماعية متقاربة إلا أن النغم الموحد فيها كان الوعد بالسعي لتخفيف مدد الأحكام حتى العفو .

كانت الرسالة الأولى الشخصية التي تلقاها حمد قادرة على تشويش ذهنه و اضطرابه فكانت التجربة بالنسبة إليه جديدة شديدة الإغراء . إلا أنه استطاع مع الزمن أن يسلو .

و في التجربة الثانية كان قد اكتسب مناعة و من ثم لم تعد الرسائل المقبلة تثير في نفسه إلا شيئا " من الاشمئزاز .

و لم تطل مهمة حامل المفاتيح بعد أن أصبح قادرا " على العمل ، و من ثم بعد أن لاحظت إدارة المعتقل تصميمه على أن لا ينحني أمام الإغراءات .

أعيد إلى العمل الترتيب المضني المرهق في الغابات العذراء .

انطلاق مع الفجر، و عودة عند الظهر ، ثم استئناف لأعمال الصلح ثم العودة إلى المهاجع الجديدة حيث الأسرة من قماش ترتفع عن أرض الغرفة الخشبية ، و يلز بعضها بعضا " حتى تكاد تبدو سريرا " واحدا"واسعا" .

و هكذا مضت السنوات مملة كالحة لا يغير من طعمها المرير غير بهجة مصطنعة عابرة في عيد الميلاد أو رأس السنة ، كانت في الغالب إثارة جديدة و تحريضا" لذكريات كامنة عن أعياد الوطن الصاخبة الشديدة المرح و عن الأهل و الأحبة الذين قد يذكرونه و قلوبهم تعتصر حزنا " في موجة أفراح الحي العارمة ، حتى نهار الأحد نهار الراحة و الاستجمام كان نوعا" من أنواع الأشغال الشاقة المخففة : غسيل و حراسة غسيل .

و الحوادث المفجعة التي كانت تهز السجناء الجدد لم تعد تهزهم الآن ، فقد تعودوا حتى هانت و لم تعد ترهبهم التهديدات بالزنزانات المنفردة ، و أغلال الحديد .

حتى الذين جربوا بشاعتها لم يلبثوا أن بددوا رهبتهم و عذابهم في غمرة الأعمال الشاقة الجديدة اليومية .

و حتى الذين أرسلوا إلى (جزيرة الشيطان) بعد محاكمات عسكرية خاطفة و الذين قيض لهم أن يعودوا أحياء و ليهمسوا إلى الموثوقين من الأصدقاء بأساليب التعذيب الرهيبة التي تعرضوا لها هناك حتى هؤلاء لم يمنعهم ذلك من المثول مرات أخرى أمام المحاكم العسكرية نفسها : أليست الغويان كلها جزيرة الشيطان ؟ ...

و ذات يوم عندما كان حمد يحلق بنفسه و بيده كسرة من مرآة أفزعه ديبب الشيب المبكر في عارضيه . و تجاعيد الهم ترتسم عميقة في جبينه الذي حولته الشمس الاستوائية إلى قطعة من نحاس داكن ،

إلا أنه سرعان ما سلا عندما تذكر أن تسعة أعوام من الأشغال الشاقة و المنافي و الحرمان قد مرت ، و عندما أبلغ أنه سيكلف مهمة حامل المفاتيح نظرا" لحسن سلوكه في السجن و لهمته و انضباطه في العمل .

عاش حمد ثلاث سنوات هادئة لولا ضغط الذكريات و مرارة الاغتراب و المآسي التي كانت تؤرقه و تدمي قلبه .

لقد كان عمله الجديد نعمة يحسده كثيرون عليها إلا إنها كانت في حد ذاتها بالنسبة إليه مضية مزعجة ، فقد عز عليه أن يصبح سجانا " لرفاقه يفتح لهم الأبواب و يغلقها إلا أنه لا يزال إلى اليوم يبرر قبوله هذه المهمة طوال ثلاث سنوات بسوء حالته الصحية فهو يكد لا يفارق المستشفى و الأدوية ، حتى أنه أخطر إلى دخول المستشفى في العاصمة (لثيان) لإجراء عمليتين في كليتيه لا يزال إلى الآن يشكو منها و يضطر بسببها إلى التزام فراشه فترة بعد فترة .

و لا يزال حمد يذكر أن مهمة حامل المفاتيح و إن كانت في ظاهرها مريحة إلا أنها كانت تسمح للمللك القاتل و الخمول و الكآبة أن تنمو و قد تتأصل يوما" بعد يوم .

حتى أنه وجد نفسه مدفوعا " إلى أن يقدم طلبا " إلى المعتقل يرجو فيها أن يسمح له بالانتقال إلى العمل في إحدى الورشات الثابتة المنتشرة في داخل الغابات الهائلة الاتساع . . . و في الغابة أحس حمد بأنه يبدد شيئا" من سأمه و كآبته .

صحيح أن العمل مرهق : تقطيع جذوع ، و جر أخشاب و توضيبها و تجميعها في مراكز (سنترالات) ، حيث تنقل إلى ميناء غير أن الحياة هنا تختلف في نواحي متعددة عن الحياة في المعتقل ، فالأسوار هنا هي شواطئ البحار أو مجاهل الصحارى الاستوائية و المعتقل هو الغابة الشاسعة ذاتها و الحراس حراس هنا و هناك إلا أنهم في الغابة أشبه بمفتشين بينهم القاسي الجاف و بينهم من هم أخف قسوة و غلظة .

كانت الورشة التي ا لتحق بها حمد تتألف من عشرة أشخاص يعيشون حيث يعملون و لا يلتقون بغيرهم من العمال السجناء إلا في المركز (السنترال) ، كل أحد أو في الأعياد القليلة النادرة .

كان كل واحد من الرجال العشرة في الفرقة قد بنى لنفسه كوخا " من الخشب يرتفع مترين إلى ثلاثة عن الأرض ، سقفه من سعف النخيل الاستوائي و أرضه من الخشب و ركائزه أشجار الغابة الحية الضخمة ذاتها ، يصل إليه بسلم متحرك يرفعه و يخفضه حسب الحاجة ، و في الداخل مؤونة الأسبوع و بعض أدوات المطبخ و برميل صغير للماء ، و في بعضها كان يعلق قوس و جعبة للسهام من بقايا قماش خيمة .

كانت الأكواخ متقاربة و متشابهة و إن اختفى بعضها خلف الجذوع الضخمة و الأغصان الخضراء الداكنة الدائمة النمو و بين الألياف المتأرجحة . . .

تعاونت الفرقة لبناء مأوى لزميلهم الجديد و في المساء كان حمد يستلقي فوق أرض كوخه الخشبي المعلق في الهواء و يستسلم إلى التأملات و الذكريات وحيدا " في أعماق الغابة التي كانت تبدو حالكة السواد لأنها قطعة من الليل الدامس و إن التمتع من خلال الكوة الصغيرة بعض النجوم الشديدة البريق .

لم يحاول أن يغري جفنيه بالنوم , لقد كان في حالة يلذ لإنسان فيها أن يتأمل : أنه في كوخه وحيد
حر في الدخول و الخروج , يستطيع أن يغني بملء رئتيه أغانيه الحزينة , أغاني الشكوى و الحنين , يستطيع أن
يأكل متى شاء , و يستيقظ متى شاء و يستريح متى شاء , أنه يحس بشيء من الحرية و إن كان قد أفهم أن
عليه أن يقدم كل أسبوع كمية معينة من الأخشاب يقطعها و يحملها إلى عربة من حديد و يدفعها أمامه مع
واحد من زملائه فوق خط حديدي ضيق حتى المركز .

و هو يشعر بشيء من الراحة و إن كان قد أفهم أن عقوبات التقصير و الإهمال أشد قسوة , إلا يكفي
أنه استراح من قرع الجرس الذي لم يهدأ طوال اثني عشر عاما " ؟ إلا يكفي أنه ودع ذلك السرير من القماش
الضيق الذي كان يكبله كل ليلة فلا يستطيع أن يتقلب و لا أن يتحرك بشيء من الحرية دون أن يدفع بي ده أو
ساقه سرير جاره ! ...

إلا يكفي أنه استراح من البعوض و الخفاش و روائح المهجع النتنة ! ... كان يشعر بأن الإنسان
يستطيع أن يكون في هذه الغابة راضيا " , مستسلما" , إلا أن الإحساس بالظلم و الاستعباد و حجز الحرية , و
الحرمان من المجتمع الإنساني , و الحنين الدائم المتجدد إلى الأهل و الوطن و طيف الأم الساهرة المنتظرة بصبر
القديسين عودة الابن المشرذ المعذب , كل ذلك كان ينغص على حمد كل محاولة للاستسلام و الرضا .

و عادت إلى ذهن حمد الصور الرهيبة الجريئة التي كان يرسمها لثورة يؤججها هؤلاء المعذبون ضد
جلاديهم في تلك المجاهل النائية . إلا أن حماسه لتلك الفكرة الهائلة لم تلبث أن خمدت فالإرهاب , و تجزئة
المعتقلات و الريبة كانت هي المهيمنة و من ثم فإن مثل ذلك التمرد في مجاهل نائية سيكون نكبة لا تستحق
التضحية الخاسرة .

و عندما كانت طلائع الفجر تطل من كوة كوخه كان صوته الحزين الناعم يردد في سكون الغابة
السوداء (موالا") لا يزال يرددده إلى اليوم و كأنه يحيي تلك الفترة الرهيبة من شبابه :

دهري غدربي و أصبحت أنا وحيد

يا حيف يا عمر المضي في السجن

و أصبحت أنا وحيد

أسألك يا إله العرش الواحد الوحيد

نرجع إلى الديار و يكون عنا أكبر عيد ... أوف ...

الفصل الحادي عشر

كانت الأعلام ترفرف فوق مركز التجمع , عندما بدأت قوافل السجناء تقبل من خلال الممرات الضيقة
الظليلة , و على وجهها تعابير دهشة و قلق .

تجمع فوري في المركز . . .

هذا هو الأمر الذي تلقاه سجناء الغابة دون أي تفصيل .

لذا كان من الطبيعي أن يدهشوا أو يقلقوا , أنه أمر لم يحدث حتى الآن . . .

ما الخبر ؟ كان هذا هو السؤال الوحيد الذي بقي بلا جواب بضع ساعات مرهقة .

اجتاز حمد الممر الواسع الذي اعتاد أن يسير فيه و هو يدفع عربة الحديد المحملة بأخ شاب الغابة , بين الأكداس الهائلة من الجذوع التي كانت ترتفع عدة أمتار في الفضاء المكشوف , مكونة سورا" هائلًا" ضخما" حول المركز , لم يجد شيئًا " يلفت الانتباه سوى الأعلام المثلثة الألوان التي كانت ترفرف متعانقة فوق سقوف المهاجع و في شرفات الأبنية الرشيقة المخصصة للضباط و ضباط الصف.

أمر السجناء بالوقوف في رتل ثلاثي في ركن من أركان الباحة , مكشوفي الرؤوس , ليؤدوا التحية للحاكم الجديد مسيو شينال , و هو الاسم الذي لا يزال حمد يذكره .

و عند الظهيرة دوت نداءات الاستعداد , و دبت في المركز حركة مفاجئة بين الحراس , في حين تسمر السجناء في صفوفهم , بأزيائهم الشديدة الغرابة , يتصبب العرق غزيرًا" فوق جباههم وأعناقهم دون أن تتحرك يد و لو خلسة لمسحه .

و اندفعت فجأة من خلال أحد الممرات عربة يجرها جوادان ضخمان و هي تفرقع فوق الأرض الجافة المكشوفة .

دوى بوق التحية , و رفعت قطعة من الح راس بنادقها إلى أكتافها استعدادًا " لتقديم السلاح و قد وقف على رأسها ضابط شاهر سيفه الذي راح يلمع تحت أشعة الشمس الاستوائية ببريق باهر .

كان لحمد مثل تلك العربة التي اقتحمت الباحة مجلجلة مقرقة و كان له مثل هذا السيف المشرق و ومثل تلك الخيول أيام شبابه . . . أما الآن . . .

و سرعان ما اقتلعه من تفكيره صوت يدوي بالتحية , و ارتفعت الأيدي إلى الجباه اللزجة , و تسمرت فوقها , في حين تعلقت كل الأنظار في اتجاه القادم الجديد .

أزيح الستار مثل ستار هودج الشرق , و أطلت منه قبعة بيضاء ثم رأس نسائي .

و مد أحد الضباط يدا " يساعد بها السيدة التي قفزت إلى الأرض و هي تنفض ما علق على ثيابها البيضاء الواسعة من غبار و تصلح من شعرها و قبعتها .

و قفزت إلى جانبها صبية رشيقة ممشوقة وقفت تتطلع مشدوهة في هذا الجو الغريب , غرابة الأساطير , و تبعهما رجل طويل كهل ملئ الشيب الشاربين يرتدي قبعة المعمرين البيضاء الواسعة , و بذلة ناصعة البياض و هو ينفذ ما تبقى من غليونه , ثم يدسه في جيبه و يتقدم نحو الضابط الصغير الذي راح

صوته يدوي بالتحية و هو يلوح بسيفه في حركة دائرية ثم يرفعه قليلا " في الفضاء ليثبتته أمام وجهه الذي بدا عصبيا" صارم التقاطيع , في حين كانت الأيدي تدق البنادق دقا" في حركة إيقاعية واحدة .

وقفت السيدة و الفتاة في المكان الذي نزلتا فيه و هما تحركان مروحتين واسعتين أمام وجههما , و قد بدتا مشدوهتين أمام هذه المسرحية الغريبة الحية .

أما الرجل الكهل فقد تقدم يرد التحية ثم يوعز للضابط بأن يأمر بالاستراحة تلكاً الضابط الشاب قليلا" , و هو يعلم أن الاستراحة تأتي بعد إنهاء جولة التفقد , إلا أنه سرعان ما راح صوته الناعم يدوي و هو يأمر بالاستراحة بعد أن حدجه الحاكم الجديد بنظرة خاطفة قاسية .

تقدم الحاكم من رتل السجناء ثم تناول غليونه فجأة ثم أشعله بهدوء و هو يطلب إلى الضابط المرافق أن يسمح للشباب بمسح عرقهم المتصبب و بارتداء قبعاتهم التي كانت معلقة إلى جنوبهم , ثم راح يصفحهم واحدا واحدا , و يسألهم عن أسمائهم و بلادهم ...

تلعثم المساكين و قد عقدت الدهشة ألسنتهم و تضاربت في رؤوسهم شتى الأفكار و الاحتمالات و ظلوا رغم التشجيع و الابتسام ينظرون باستغراب و ريبة و قلق إلى هذه المفاجآت التي لم يألفوها .
عربة و خيول ... نساء في أحضان الغابة ... حاكم يرتدي الزي المدني ثم يبتسم و يصفح ...
شيء غريب و مثير حقا" ...

و عندما مد يده ليصفح حمد كان السجين القديم قد تمالك نفسه و استعاد شيئا" من هدوئه و صفاء ذهنه .

- اسمك .

- حمد عباس ذياب من السويداء سورية , محكوم بعشرين سنة أشغال شاقة و مثلها نفي , قضيت منها حتى الآن ما يقرب من أربع عشرة سنة ...

- وما هو عملك الآن ؟ ...

- أقطع الخشب في أحضان الغابة و أنقله مع زميل لي إلى هذا المركز ...

- هل لك أي رغبة أو ملاحظة ...

- وجم حمد قليلا" ثم تمتم , ...

- نعم ... و لكن ...

- و لكن ماذا ؟ ... لا تخف ... تكلم ...

ثم ربت على كتفه باسمها" مشجعا" , فانطلق حمد بشيء من الثقة بالنفس :

- سيدي ... هل تأمر لي بترجمان .

و انبرى واحد من السجناء بأمر الحاكم ليقوم بمهمة الترجمة .

- سعادة الحاكم : بالنسبة لي , أنا لا أطلب شيئاً , إن عملي في الغابة متعب مرهق و لكنني أنحمله بصبر , أما الشيء الذي لا يحتمل يا سعادة الحاكم فهو البعوض الذي أوصلنا جميعاً " إلى المستشفيات , و أوصل بعضنا إلى المقابر ...

و هنا تقدمت السيدتان يدفعهما الفضول و توقفتا خلف الحاكم تصغيان بكثير من الانتباه و التشجيع

...

و تابع حمد ... لا يسمح لنا بالغسيل و لا بالطعام في الصباح , و عند الظهر يكون الغداء تافهاً .

و انطلقت من خلف الحاكم صرخة ناعمة : - برفو ... تابع ...

و تجهم وجه الضابط و احتقن و راح يحدج السجن الجريء بنظرات الوعيد يختلسها من حين إلى حين , إلا أن ذلك لم يخفف شيئاً من حماسة حمد و انطلاقه :

- سعادة الحاكم , في المساء عدس مسّوس , و الشيء الأهم من كل هذا يا سيدي أننا نعامل هنا معاملة الثيران , لا معاملة البشر ...

ثم توقف و قد أحس بالنار تغلي في عروقه غيظاً " و حقداً " إلا أنه سرعان ما راح يهدئ من أعصابه المتوترة و هو يمسح عرقه المتصبب .

- يا سعادة الحاكم ... يكفيننا من العذاب هذا الجو المحرق الخانق و الحرمان من أهلنا و وطننا و من البشر , إذا أمرتم بتحسين معاملتنا شكرناكم و إلا فإن شكوانا إلى الله .

مسحت السيدة خلصة دمعة راحت تترقق على خدها , أما الفتاة فقد كانت تتمتم خلف والدها بصوت مسموع :

- هذا رهيب يا أبي ... رهيب .

و نفض الحاكم عيونه و هو يتمتم .

- طيب ... سنرى ...

ثم أعطى الأمر للسجناء بالتفرق و تقدم نحو المقصف المعد له و هو يضرب أعلى ساقه بغليونه المطفأ في حركة عصبية ظاهرة .

ما كاد الحاكم يدخل القاعة الفسيحة المزينة بالأعلام و الزهور الاستوائية , و المصابيح الصينية حتى تقدم صف ضابط من حمد يستدعيه لمقابلة مدير المركز ...

وقف حمد أمام المدير وقفة الاستعداد و هو يحس بأن شرا " سيحدث , لقد كانت تصريحاته فضيحة و سيكون العقاب قاسيا" .

إلا أنه بدا راضيا" مطمئنا" , حدجه المدير بنظرة حقد صارخة و هو يتمتم في شبه عربية :

سالو . . . و أشار إلى حارسين من حراسه إشارة خاطفة و إذا بالسجين يكبل و يساق إلى غرفة منفردة جانبية ضيقة شديدة الظلمة عفنة , كأنها مستودع للنفايات , ثم انحنى أحد الحارسين و راح يثبت الحديد برجلي حمد بقسوة و لؤم و هو يلوح بالسوط و يهدد بصوت أجش و لهجة بعيدة عن اللهجات الفرنسية التي تعود حمد سماعها .

ضاقت الدنيا في عينيه و ازدادت ظلمة الزنزانة ظلمة و عفونة و أحس بدافع ملح صارخ يدفعه إلى أن يضع حدا" لحياته , هذه الحياة التي طالما تمسك بها من أجل أمه و وطنه , أما الآن فلم يعد للحياة قيمة , كفاه صبرا" , كفاه ذلة . . .

و تطلع حوله و هو يختنق غيظا " و حقدًا" و مد يديه إلى إبريق من تنك , في زاوية من زوايا قفصه الخانق , تحسسه , ثم شممه , و بحركة لا شعورية خاطفة كان يكرع ما فيه كالمجنون .

و في الباحة كان الحاكم يطلب أن يتفقد ورشات العمل في مرا كز التجمع الأخرى و تقدم الضابط الشاب يعتذر بأن العربية لا تستطيع أن تتغلغل في الغابة , و أن العادة قد جرت على أن تهيأ عربية جديدة عربات العمل للتنقل بين مراكز التجمع , و تقدم الحاكم تتبعه أسرته من العربية المعدة , كانت تشبه في ترتيبها إلى حد كبير العربية التي أوصلتهم إلى هذا المركز , ستائر ملونة و فرش مغطاة بقطع من السجاد المغربي و مساند مزركشة و علم صغير مثلث الألوان يرتفع فوق مقدمتها , و قد وقف خلفها سجينان عملاقان وقفة الاستعداد العسكرية .

استدارت السيدة بشيء من الاستغراب و الدهشة نحو الضابط الشاب و هي تسأل مشيرة إلى العربية و السجينين :

- ما هذا ؟ . . .

- مدام , أجا ب الضابط , بشيء من التردد , الخيل لا تصلح للغابات , و لهذا فنحن نضطر أن نكلف المساجين بهذا العمل .

توقفت السيدة فجأة و هي تصرخ و تضرب الأرض بقدمها :

- لا . . . لن أسمح لأي إنسان أن يجربني , ثم التفتت نحو زوجها و هي تحاول أن تهدئ من ثورتها :

- أعتقد أنك توافقني يا عزيزي ؟

- نعم يا ماما , بابا موافق . . .

تمت الصبية الممشوقة الشقراء بصوت ناعم كأنه يسترحم ...

أعطي الأمر للسجين بالانصراف , و عادت الأسرة كئيبة صامتة كأنها تسير في مآتم نحو المقصف .

و في المقصف انتحى الحاكم و أسرته زاوية يحاولون أن ينسوا متاعب اليوم و مفاجآته في أقذاح
النبيد التي ظلت طافحة , لم تمس طوال ساعة من الزمن .

و انطلقت الصبية تحاول أن تبدد ذاك السكون الخانق ,

- بابا . ما رأيك لو استدعينا ذلك السجين الذي أبدا بعض الملاحظات الجريئة و طلبنا منه بعض
التفاصيل ربما يساعدنا أكثر على فهم أوضاع المعتقل ...

- معك حق يا بنتي ...

أجاب الكهل و هو يمد يده إلى قدح النبيد .

- ليكن الآن يا عزيزي , هتفت الزوجة و على صحة نجاحك في عملك العظيم الجديد يا سيدي
الجنرال ...

و تناولت كأسها و رفعتها إلى شفيتها في ابتسامة ساحرة و أشار الحاكم إلى الضابط المرافق , و أفهمه
أنه يرغب في أن يقابله السجين رقم

و أخرج من مفكرته يقرأ فيها الرقم المطلوب .

حيا الضابط الشاب , و انطلق بشيء من السرعة نحو إدارة المركز ...

قرع الباب فاستقبله المدير , و هو لا يزال يذرع الغرفة في حقد ظاهر .

- سيدي الكابتن : سيادة الحاكم يطلب أن يقابله السجين رقم

- إنه هنا ... خذه .

و أشار نحو الغرفة الضيقة المغلقة بكثير من الغيظ و الاشمزاز و عاد يذرع الغرفة و هو يدمدم و
يتوعد ...

فتح الملازم الباب و صرخ في السجين المتكوم في الغرفة الضيقة المظلمة العفنة ...

- ذياب ... أخرج ...

لم يتحرك , لم يختلج ... لعله نائم .

و رفع صوته و هو يزعق ...

- ذياب -- اخرج ...

ظل السجين مكوماً على نفسه دون أن يختلج ...

- كابتين ... إليّ ...

أسرع الكابتين ملهوفاً و مسدسه في يده .

- يظهر أنه ميت يا كابتين ...

تراكض الحراس و سحبوا الجثة إلى الممر ، و حملوها مسرعين إلى المستوصف القريب ، في جلبلة و
ضوضاء ...

و انحنى الطبيب يفحصه بشيء من الارتباك و القلق ، ثم تمتم :

- إنه لم ينتهي تماماً ... قد يعيش ...

عاد الضابط الشاب يرتجف من هول المفاجأة ، إنها قمة الفضائح ...

- سيدي الجنرال ... الرجل في المستوصف ... في حالة خطرة ...

لم يتحرك الحاكم و إن بدت على وجهه إمارات القلق و الضيق ، في حين أجهشت السيدة بالبكاء ، أما
الصبية فقد استأذنت الوالدين لعيادة السجين المحتضر ...

وقفت الفتاة شاحبة مضطربة فوق رأس الشاب المسجى و قد غطى شارباه قسماً من وجهه الشاحب
و راح صدره يرتفع و ينخفض في بطاء مخيف .

- دكتور ... ماذا حدث ... ؟

- حاول الانتحار بمادة الغريزيل ، يمكن إنقاذه إذا كان له حظ ...

و طلبت الفتاة الإذن من الطبيب في أن تسهر إلى جانب السجين ، في حين كان الوالد الحاكم يشرف
بنفسه على التحقيق .

لم يفارق الطبيب السرير لحظة واحدة و قد أحس بأن وراء هذا الانتحار دافعا " إنسانياً عميقاً " ، في
حين كانت الفتاة الشاحبة ، تضع يدها فترة بعد فترة فوق معصم السجين تتأكد من نبضه و هي لا تنطق بكلمة
واحدة و لا تتحرك ، و إن هي راحت تحت الطبيب من حين إلى حين على أن يعمل شيئاً لإنقاذ الرجل .

و عندما فتح حمد عينيه في شبه غيبوبة ، لمح عينين زرقاوين بلون السماء تنظران إليه بحنان في إطار
من الشعر الذهبي المتماوج ... و عاد من جديد يغمض عينيه و يستسلم إلى النوم كأنه يشد على حلمه
الجميل كي لا يهرب من بين جفنيه المتعبين .

و من جديد فتح عينيه و تمتم ...

- أين أنا ؟ ...

و صرخت الفتاة بصوتها الناعم الدافئ

- شد حيلك ...

و في المساء كانت عربة الحاكم تنقله إلى المستشفى من جديد .

و في السويداء كانت الأم تتلقى بعد بضعة أشهر رسالة من الغويان لم تعد تدري كيف اختفت من الصندوق الضخم المطعم الذي كانت تحرص على أن يضم أئمن ذكرياتها , و لا تزال تتحسر عليها حتى اليوم , و إن هي ظلت تذكرها بالحرف الواحد و قد كانت تطلب من أحد أولاد الجيران أن يقرأها لها حيناً " بعد حين طوال سبع سنوات في انتظار رسالة ثانية لم تصل ...

كان حمد في رسالته يسأل عنها باهتمام و قلق , و يسأل عن أخيه الذي عرف في رسالة قديمة سابقة تلقاها أن اسمه سلمان و أنه الآن في الخامسة عشرة من عمره تقريبا " , و يعجب لماذا لا يكتب إليه , أن الفتى في هذه السن يعتبر في الجبل رجلاً " يحس بالمسؤولية و يتحملها , ماذا حدث له ؟ لو كان حياً " لما بخل عليه في الكتابة , يجب أن يكتب إليه ... يجب ..

و يسأل كذلك عن أخبار الأهل و الجيران , عن أخواته الثلاث و ما هي أحوالهن ...

أما أخباره هو فقد كانت طويلة فيها المشجع و فيها المحزن المؤلم ...

تعرف بحسين العقائل من المجدل و هو يكلف أمه أن تخبر أهله بأنه بخير و بصحة جيدة .

صار له حادث دخل على أثره المستشفى و لقي من ابنة الحاكم كل اهتمام و تشجيع , و استفسرت منه عن أسباب نفيه إلى الغويان و أخبار المعتقلات و الغابات بالتفصيل , و عندما عرفت و تأكدت أنه محكوم سياسي لمحت أنها لا تمنع في أن تعيش معه في تلك البلاد أو في فرنسا , إلا انه اعتذر بكل بساطة بأنه مريض و لا يصلح للحياة الزوجية .

و مع ذلك فإنه سيظل يذكر اهتمامها به و سهرها عليه بكل امتنان , و لا تزال إم حمود تذكر أن حمد كان شديد الاعتزاز في رسالته بأنه خاطب الحاكم بشجاعة من أجل تحسين حالة المعتقلات و أن الحاكم استجاب إلى مطالب ولدها , وزع الناموسيات على جميع السجناء , و أمر لهم بطعام الصباح , و حسن الأكل تحسيناً " مملوساً" . و أهم من هذا كله انه رفع عن المساجين كل الأعمال البشعة التي كانوا يرغمون على القيام بها , لا جر خشب و لا جر عربة الحكام , و إنما أعمال معقولة مثل الأعمال التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان يشتغل في مصلحة حكومية .

و عندما خرج من المستشفى استدعاه الحاكم و أكد له أنه طلب من رؤسائه في باريس صلاحية لمنح عفو عام عن المساجين القدامى و تخفيض مدد المساجين الجدد .

و لا تزال إم محمود تذكر أيضاً " أن ولدها كان شديد الثقة بالله في أن العفو سيصدر و أن العودة إلى الوطن بحول الله قريبة ...

و تضيف إم محمود أنها أرسلت إليه رسالتين واحدة باسمها و الثانية باسم سلمان إلا أن حمد أكد لها عندما عاد بأنه لم يتلقى أية رسالة طوال سبع سنوات فقد وقعت الحرب العالمية الثانية خلال تلك ا لمدة و انقطعت أخباره انقطاعاً تاماً حتى كادت أمه أن تصدق الشائعات القوية التي راجت عن موته و لم يبق في السويداء من يعتقد بعودة حمد إلا هي . . . إنها ظلت تعتقد بلقاء ولدها و إن احتجبت أخباره طوال سبع سنوات كاملة إلا أنها ظلت خلال تلك المدة لا تفتأ عن زيارة الأولياء و عن الدعاء المضطرم إيماناً " و ثقة , و إن كانت عيناها قد عشيتا من البكاء و جفناها تقرحاً من الهم و السهر و اللوعة . . .

و عندما وقفت ذات يوم بحسرة و ذلة في باب الحاكم بالسويداء تسأل عن مصير ولدها , كان الجنرال يجيب بشيء من الاستخفاف و بشيء من الشفقة :

- الله وحده يعلم !

الفصل الثاني عشر

كان قد مضى على حمد خمسة عشر عاماً في الأشغال الشاقة المختلفة في الغابات و المعتقلات المسورة عندما أبلغ مع عدد من رفاقه بأنه قد أعفي من السنوات الخمس الباقية من مدة حكمه و أنه يستطيع أن يقضي مدة منفاه في الجزيرة .

لم يكن الخبر بالنسبة إليه مثيراً " أو مبشراً " , فالحياة في الجزيرة لا تختلف كثيراً عن المعتقل , إنها على ما ترامى إليه , و ربما تؤكد منه , معتقل أوسع , و ربما كانت حياة السجون على شقائها و إرهاقها أكثر هدوءاً و اطمئناناً و أضمن سلامة .

ومن ثم فإنه إن استطاع أن يقضي هذه المدة في المعتقل قادراً " على الكفاح من أجل البقاء فهل يجد في العشرين عاماً القادمة القدرة على الحياة و قد بدأ الشيب يدب في عارضيه و بدأت التجاعيد ترتسم على جبينه المكدود النحاسي , غائرة متشابكة , و هو لا يخرج من المستشفى إلا ليعود إليها جريحاً " أو محتضراً" أو مرتجفاً" من البرداء أو إلى غرفة العمليات . . .

لم يبد حزينا " أو فرحاً" عندما أبلغ إعفائه من السنوات الخمس الباقية من الأشغال الشاقة . و إنما بدا كئيباً " قلقاً" و هو يواجه مرحلة العشرين سنة القادمة من النفي في الجزيرة الرهيبة .

و مع ذلك فقد أخذ يشعر شيئاً " فشيئاً" بأنه سيكون أحسن حالاً " : إنه على أبواب حرية طالما اشتاقها و إن كانت حرية منغصة .

كانت أولى مفاجآت هذه الحرية أن أعطي بذلة مدنية , و استعيدت منه بذلة المهرج ذات الألوان الشبيهة بجلد الحمار الوحشي , و تخلص من ذلك الحافر الخشبي السمج .

آه : ما أجملها هذه البزة التي أحس مع ها حمد بأنه يستعيد إنسانيته , إنها قديمة شبه بالية مجمدة تلمع فيها بقع الزيوت المختلفة , إلا أنها بذلة إنسان . . . إنسان من البشر . . .

قبل رفاقه و شد على أيديهم بحرارة أودعها كل ما في قلبه الطيب من تمنيات و تشجيع .

ثم ألقى نظرة وداع طويلة على تلك الثكنات الواسعة الضخمة و الأسوار العالية ذات الأنياب الزجاجية الرهيبة , تلك الأسوار التي بدأ يشعر الآن نحوها شعور مودة لا شعور حقد و ثأر .

ألم يودع فيها جزءاً من شبابه ؟ ألم تكن مسرحاً لذكريات و صداقات و مصير مشترك و تعاون ؟ .

ألم تكن شاهداً على الصراع النفسي الهائل الذي خاضه بين بوارق الأمل و دياجى اليأس القاتل ؟ بين فترات التردد و الضعف البشري و بين الصمود و التحدي ... و أخيراً ...

لماذا يحقد ؟ ألم يكن هو من القلائل الذين انتصروا عليها و لو بالصبر و المكابرة و الذين راحوا ينظرون إليها نظرة الظافر المشفق و هي تغيب في أحضان الغابة الظليلة المتشابكة الواسعة من خلال الممر الضيق الذي بدا مظلماً رغم أشعة الشمس المحرقة التي كانت آنذاك تنسكب على الأرض كالمعدن المصهور .

كان يسير وحيداً " في اتجاه الميناء , يدس يده في جيب رداءه المهلهل بين الحين و الحين يتحسس الوريقات الملونة التي تثبت هويته و العفو الصادر عن بقية مدته في الأشغال الشاقة . و تعليمات الأمن المتعلقة بسلوكه المقبل في المنفى و من ثم تلك الرسائل التسع الوحيدة التي تسلمها من أمه طوال خمسة عشر عاماً .

و هل يذكر حمد أنه تسلم غيرها من الوطن ! ...

و هنا توقف يشعل السيكارا الوحيدة الأخيرة , ثم انطلق و هو يتمتم ...

لماذا لم يكتب إلي أحد ؟ لي أصدقاء في الوطن ! ...

لي أهل و معارف : لماذا نسوك يا حمد , ربما ظنوا أنك لن تعود و أنك لن تعاتبهم ؟

و لكن ... ربما كانت المراقبة العسكرية تمنع وصول رسائلهم إليك ... لا أظن ... لأن بريد المعتقل الأسبوعي لم يكن بخيلاً على الرفاق الآخرين آه ...

كم كان الواحد منهم يبدو سعيداً عندما كان يقرأ أو يطلب من رفيق له أن يقرأ له رسالة من صديق قديم أو قريب مشتاق : ... أما هو فقد كان يشعر بخيبة أمل يشعر بغصة ... باحترق . عندما كان ينظر إليهم في المهجع الواسع و هم يتلون الرسائل تلاوة الأناشيد الدينية ...

لماذا ؟ ... لماذا لم يذكرك أحد سواها ؟ ...

هل كان عملك مشيناً أو مخلاً بعادات قومك يا حمد حتى تعامل بمثل هذا الجفاء و الإهمال ؟ ! . هل جبنوا بعدك و ذلوا ؟ لا أظن ! ... لا أظن فهو لا يزال يذكر أغنية رفيقه بن عمار الذي طالما شكاً مثله نسيان الأهل و الأصحاب ...

تو مدة ما جاني جواب

دمعي على خدي سكاب

أولاد عمي اثنين نسيوني

يا قلال الدين ! لو كان إنتو مربوطين

نبيع عليكم ما نكسب ... آه ...

تو مده ما جاني جواب ...

و قفز من فوق رأسه سعدان صغير راح يقهقه و يرقص بهرح في أعالي الأغصان و هو يرمي الشريد
الغريب بنظرات دعابة و سخرية .

انتفض حمد و ود لو كان مسلحا " لأدب به قروود الغابة كلها ... إلا أنه ما عتم إن ضحك ضحكة
خافتة من تلك الفكرة السخيفة التي راودته ... و من ثم لم يتمالك أن رفع صوته بالغناء غناء حزينا رتيا
ضائعا في أعماق الغابة الراكدة السوداء .

ها هي المدينة , القرية الكبيرة , تطل من وراء فسحة من الأرض مكشوفة ترتفع على جنباتها الأسوار الهائلة من
الأشجار الاستوائية الضخمة المتشابكة , و ها هو البحر اللامتناهي الشديد الصفاء و الركود كأنه بحر من زيت ,
تتراقص فوقه بدلال و رشاقة أشعة الشمس المتوهجة و يسطع بريقها فوق أسطحه الزنك المنتشرة في الأحياء
الأوربية من المدينة , القرية التي زارها حمد مرة بعد مرة في أعمال السخرة أو فوق محفة إلى المستشفى , و
هو يعرف لماذا تدعى (كايان) أي قابيل قاتل أخيه هاويل ..

خيل إليه أنه يقبل على معتقل جديد أشد شراسة و غلظة من المعتقل الذي ودعه منذ ساعات , و لكن
لا ... إنه سيكون هنا حرا" و سيعرف كيف ينتصر و لو بالصبر و المكابرة ... يجب أن يحيا ... يجب أن
يعود إلى أمه و وطنه ...

دخل أزقة المدينة الترابية , لم يلتفت إليه أحد , لم يهتم به أحد ... لم يسلم عليه أحد , هو لا يعرف
أحدا" و لا أحد يعرفه من الناس القلائل الذين كانوا يهرون به بعضهم بثياب أوروبية مزرية و مقبولة و بعضهم
عراة ... إلا من قطعة قماش , قطعة قماش واحدة بحجم الكف يربط ونها بخيط من ألياف الأشجار حول
حقوقهم , و بعضهم الآخر عراة , عراة تماما" كما ولدتهم أمهاتهم حتى النساء .

سأل عن نقطة البوليس , فأرشد إليها , إنها إلى جانب الميناء الذي كان خاليا " من المارة آنذاك حتى
من العمال ... شيء مستغرب , كان الميناء دائما" و أبدا" في حركة مذهلة مدهشة , طوافات تحمل الأخشاب و
البراميل و البضائع و الحيوانات و المساجين و المسافرين ذاهبة آيبة أما الآن فركود ... ركود غير طبيعي ...
ماذا حدث ؟ ! .

- أنت من سورية ... من الشرق ... أنت محكوم الآن في البقاء في هذه الجزيرة عشرين سنة ,
عقوبة الموت تنتظرك إذا حاولت أن تغادرها بلا إذن منا انتبه ... و الآن أدلك على واحد من بلدك اسمه
محفوظ , صاحب مطعم في الساحة الرئيسية بالبلدة يمكن أن يرشدك إلى عمل تعيش منه ...

كن عاقلا" . . . في رأيي أن عشرين سنة في المنفى خير من الموت رميا" بالرصاص . . . رصاصة واحدة لا تكلفنا شيئا" . . . مفهوم . . . خذ . . .

و انحنى ضابط البوليس القصير الثخين يفتح درجا" و يقدم إليه حفنة من الفرنكات . . .

- ضع بصمتك هنا على هذه الورقة . . . انتبه هذا المبلغ لا يكفيك أكثر من أسبوع . . . المبدأ هنا من لا يعمل يجب أن يموت جوعا" . . . مفهوم . . .

ظل حمد واقفا" وقفة الاستعداد . . . لم يتعود أن يمد يده . . . أنه لن يبدأ بالتسول بعد خمسة عشر عاما" من الأشغال الشاقة .

كادت الدمعة تفر من جفنه , و لكنه استطاع أن يجبسها و هو يعض على شفته من القهر , كاد أن يستدير و يخرج من المكتب بلا وعي , و تحرك الضابط بهدوء من خلف مكتبه ثم تقدم يربت بوفق على كتف حمد :

- اسمع يا رجل . . . هذه ليست صدقة . . . إنها عمل قانوني يجب أن لا تتردد إذا شئت أن تحيا و أن تعود يوما" ما إلى بلدك . . .

تشجع قل لمحفوظ أنا أسلم عليه إنه رجل طيب . . .

سار كئيبا" غريبا" لا يثير انتباهه أي شيء , و أي شيء يثير الانتباه في قرية خامدة عند الغروب بلا سيارات و بلا دراجات و لا أي جنس من أجناس الدواب , لا خيل و لا حمير , و لا ماشية, إنها بلاد زنوج فقراء مشردين عراة يتقاسمون ثمار الطبيعة و بعض بقولها مع الجماعات من السعادين التي تبدو أكثر سعادة و مرحا" ؟ ! .

و عندما أقبل على الساحة العامة كانت الأزقة الضيقة مظلمة خالية تجوبها بعض الكلاب الشاردة و بعض دوريات الحراسة , و كان بعض الناس القلائل بأزيائهم الأوربية أو بعض الزنوج النصف عراة يغادرونها و يتغلغلون في الأزقة الفرعية التي راحت تتحول إلى قطع من الليل الدامس الساكن .

و لم يصعب على حمد أن يهتدي على مطعم محفوظ فقد كان في أقصى الباحة باب زجاجي وحيد يشع منه ضوء قنديل خافت و تلوح في داخله بعض المقاعد المنخفضة و بعض الصحون و الأكواب و القناني . .

قرع الباب بيد متزودة , و انتظر , لم يسمع أي جواب , إلا أنه أحس بوقع أقدام تنزل درجات سلم خشبي , و لاح خيال إنسان ما لبث أن تقدم يطل برأسه الأشيب و في حذر أشد فتح الباب بيده اليسرى و يده اليمنى خلف ظهره .

إلا أنه لم يلبث أن أدار المفتاح و هو يدس شيئا" أسود في جيب قميصه الأبيض الواسع . .

- أدخل . . . قالها الرجل الأشيب بالفرنسية .

دخل حمد بتردد واضح و هو يلتفت , بقلق و جلس وحيدا " حزينا" في قاعة منخفضة واسعة و قد تناثرت حوله الموائد الصغيرة المنخفضة و المقاعد الخشبية السمجة و إن بدت نظيفة .

- اسمي حمد عباس دياب من السويداء - سورية .

- أهلا قالها بلغة عربية و هو يتسم مشجعا" .

الاسم ليس غريبا" عني , سأذكر المناسبة , أهلا" ... كأس نبيذ ...

- لا شكرا" ... فنجان قهوة و رغيف ...

نهض الرجل باسماء" , إلا أن حمد لم يجد في تلك الابتسامة أي تعبير واضح :

- إشفاق ... تودد ... سخرية ... استهجان ... لا يدري إلا أنه يذكر أن الرجل تسلق السلم

الخشبي و غاب فيه ربع ساعة ثم عاد يحمل فنجان القهوة و بعض الطعام و رغيفين ...

- رأس بصل من فضلك ...

- بصل ... (و كانت الابتسامة هذه المرة , ابتسامة إشفاق واضحة) ... آسف ...

لا شك أنك لم تذق البصل منذ عهد بعيد ...

سنجرب أن نحصل عليه معا " إن استطعنا ... اسمع يا حمد ... تذكرت ... تذكرت جيدا"

قصتك مع الحاكم ... اسمح لي أن أقبل وجنتيك , آه كل الناس هنا يحسون أنك حاولت أن تضحي بنفسك

من أجلهم , كل الأخبار تصلني إلى هنا , كلهم أصحابي لا يهتمون عني شيئا" ...

مدام ! ... صرخ بصوته الجهوري الحلبي ... عندنا ضيف ! ...

ثم التفت إلى ضيفه و أضاف بصوت هادئ .

- الداعي حسين محفوظ من رجال ثورة ابراهيم هنانو -- سأذكر لك التفاصيل في المستقبل , و أظن

أن قصتك هي قصتي ... سنرى ...

و في هذه الأثناء كانت سيدة قصيرة نحيفة سمراء ترتدي ثيابا " ضافية و محتشمة و غطاء للرأس

تهبط السلم الخشبي و ترحب من بعيد , و عرف حمد فيما بعد أنها فتاة مسلمة من بعض جزر الشرق الأوسط

, تعرف بها حسين في المقاطعة الهولندية من الغويان و هما الآن يديران معا" هذا المطعم بانتظار الفرج ...

دعا حسين ضيفه للمبيت عنده , في غرفة علوية منفردة اعتادت أن تستقبل أمثال هؤلاء الهائمين

الغرباء , إلا أن حسين كان حذرا في استضافتهم , كان يعرفهم تقريبا " واحدا" واحدا" قبل أن يخرجوا من

المعتقلات إلى المنافي , و كان صديقه ضابط البوليس يحذره من بعضهم , و مع ذلك فقد كان مسدسه في جيب

قميصه ليلا نهارا .

- اسمع يا حمد ... ربما لاحظت أن ابتسامتي كانت غير طبيعية عندما طلبت مني فنجان قهوة و رغيفا" ...

كان طلبك مفاجأة لي ... أنتم في الغابات لا تعلمون أن العالم في حرب .

فقدت أشياء كثيرة و اختفت من الأسواق , حتى الخبز إن وجدته اليوم فلن تجده غدا " ... أعتقد أن العفو الذي شملك مع كثيرين غيرك كان بسبب الحرب أيضا" .

تصدير الخشب لم يعد ممكنا" فالبحار مليئة بالغواصات و الألغام و بعض القطعات الألمانية البحرية وصلت إلى شواطئ أميركا , صار السجين يكلف أكثر مما يستطيع أن يقدم من إنتاج .

ثم توقف يشعل سيكارة لزميله و له و راح يستطرد ...

- أنت الآن و أمثالك أمام تجربة قاسية ستضطرون و سنضطر جميعا " إلى أن نتعود حياة الأهالي البدائيين المتوحشين ... و لعلك بحاجة إلى الراحة أكثر من نصائحى ... تصبح على خير.

قال ذلك ثم صافح بحرارة و انسحب إلى الغرفة المجاورة و هو يغلق خلفه الباب بهدوء ..

و في الصباح كان حسين يقدم إلى ضيفه قدحا " من الشاي راح يجرعه و هو لا يزال يتمطى في فراشه .

- اسمع يا حمد ... أنا أعرف عنك من زملائك أشياء كثيرة و أعرف أنك مصمم على العودة إلى أمك و وطنك ... انتبه ... من الآن يجب أن تجمع أجرة الطريق . كل يوم يجب أن توفر من فرنكين إلى خمسة فرنكات , يجب أن توفر مهما كلف , و إلا فإنك لن تخرج من هذه البلاد ..

الأميركان بينون في داخل الغابات مطارا" هائلًا" ... سأعمل جهدي لتأمين عمل لك هناك .

هز حمد رأسه علامة الشكر , و انطلق يلقي نظرة على البشر , على الحياة على الدنيا , ريثما يحصل على جواب من صديقه الجديد .

عمل حمد في المطار ما يقرب من سنة , كان سعيدا" إلى حد ما , إلا أن السرعة في العمل كانت هي الشعار و لا سيما في حالات الحرب ...

و هذه الآلات الهائلة التي لم يشاهد حمد مثلها و لم يسمع بها , بعضها ينطح الأشجار مهما كانت صلبة ضخمة مرتين أو ثلاث مرات فإذا هي تهوي في أقل من ربع ساعة , و بعضها يجرها و هو يهدر كما يجبر الولد القصبه , و بعضها يدك التلال الصغيرة و يخلع الصخر و يسوي التراب و يمهده ... و رويدا" رويدا" راحت الشركة تستغني عن عمالها و تسلم المطار إلى القوات العسكرية الأمريكية .

عاد إلى المطعم يودع ما توفر لديه من مال لدى صديقه الجديد و هو فرح مستبشر

- تعمل معي في المطعم ...

- أجرب

إلا أن التجربة كانت فاشلة فلا هو يحسن الطبخ و لا هو يجيد خدمة الزبائن ، و لا هو يقبل أن يكون عالة على المطعم المتواضع . . .

- سأعود إلى الغابات . . .

و في الغابة عاد إلى الفأس و الحبل و الكوخ الخشبي ، عاد حرا" يعمل لحساب نفسه إلا أنها ستكون حرية قاسية مريرة .. إنه تعود العمل في الغابة و آف الفأس و الشجرة .

إلا أن المشكلة الرئيسية التي واجهته في عمله الجديد كانت مشكلة الأكل . . .

في الماضي كان يحصل على معلبات و قطع جبن و بعض الخبز و العدس و الفاصوليا أما الآن فإن أكثر هذه الأشياء قد فقدت من المدينة و إن وجدت فبأسعار خيالية لا تسمح لحمد بأن يفكر في الحصول عليها .

كان لا بد إذن من العودة إلى الهمجية ، إلى مأكولات العبيد التي لا يزال يذكر منها بعض الأنواع ، الرز المسلوق بالزيت و الكواك و التايوف و النيام أما النوع الرابع فإنه لا يحب أن يذكر اسمه إنه يشبه كلمة سفيهة . و حمد ككل الجيل القديم في الجبل يتعفف عن ذكر الكلمات النابية ، أما الكواك فهو أشهرها ، إنه مثل قصب الذرة ، يقول حمد ، ورقه مستدير مثل ورق التوت ، و له عقد مثل عقد القصب كل عقدة تنبت قصبه ، جذوره تحت الأرض مثل اللفت ، و يسميها الأهالي (داشين) تقشر ، تبرش ، تعصر ، ترمى في حلة واسعة و تسلق ثم تطحن و بصير لونها بلون البرغل .

هذا هو الطعام اليومي ، لا شيء سوى الكواك ، الذي يسلق في طاسات و صحون أو لحم غزال أو أرنب .

أما الصيد الرئيسي فهو القرد الأحمر ، لا يزال حمد إلى الآن يتذكره بتقزز . . .

أخس : لحم قرود .

و لا يزال إلى اليوم يضحك عندما يتذكر محاولاته في تهيئة طعامه بنفسه .

إنه يعترف بأنه لم يستطع أن ينجح في حين استطاع صديقه حسين أن يكون من هذه المهنة رصيذا " لائقا" منقذا" .

- اسمعوا يا إخوان . . . و اضحكوا . . . جربت أطبخ الكواك نفس مثل البرغل و أكثر نقلت الطبخة إلى وعاء أكبر نشف الماء ، زدت الماء نفس من جديد . . . قلت . . . يا ولد إذا قضيت نهارك في المطبخ من أين تعيش ؟ . . . اترك

و لكن الضرورة ألزمتني أن أشتغل بالنهار في الأحرش و في الليل في الطناجر و الصحون . . .

و في بعض الأحيان كنت أصطاد بالقوس و النشاب و بواسطة كلاب الصيد ، السلاح ممنوع في تلك البلاد و خصوصا" أيام الحرب .

ربك كريم . . . و فرجه قريب . . .

إلا أن الشيء الذي لا يزال إلى اليوم يؤرق حمد و يربعه ، هو ذكريات نقل الأخشاب فوق مياه الأنهار أو الخلجان العميقة ، و هو لا يزال يعتقد أن تلك الفترة من حياته تعادل في شقاها شقاء عمره كله .

كان عليه أن يتعاون مع زميل له في قطع الأخشاب في أعماق الغابة لحسابهما و من ثم كان عليهما أن يوصلا الخشب المقطوع إلى بعض المتعهدين في الميناء .

كان زميل حمد الجديد شابا " من بعلبك ، محمد عيد عبد الكريم وثق به حمد ثقة كبيرة ، فقد كان محمد رغم صغر سنه على غاية من الاعتداد بالنفس ، و إستسهال الموت و العذاب في سبيل الحفاظ على كرامته حتى في ظل القيود و السياط و الزنانات . . .

كنا نقطع عددا" من الجذوع و الفروع الضخمة القريبة من مياه الأنهار أو الخلجان و خصوصا" قرب النهر الأحمر . اسمه على كسمة لونه بلون الدم ، و نتعاون على جر تلك الأخشاب إلى شواطئ المياه نربط الخشبة الاولى بحبال من ليف إلى إحدى الأشجار القريبة ثم نحمل أحد البراميل الفارغة لربطه تحت تلك الخشبة ثم آخر مقابله عن رأس الخشبة الثاني تحت الجذع .

و مثله البرميل الثاني و الثالث و الرابع ، ثم نبدأ بربط الجذوع فوق هاتين الخشبتين بشكل طوافة (رادو) .

الكلام سهل أما العمل فلا تتصوروا صعوبته كان على الواحد منا أن يتعري و يغطس تحت الماء لربط الجذوع و البراميل .

كانت أرواحنا تزهق و أيدينا تكل و عيوننا تزوغ خلال الساعات الطويلة التي كنا نقضيها تحت الماء ، و لو كانت الحبال من الحبال العادية ، ربما كانت العملية أسهل لكنها من ألياف الأشجار التي لا تطاوع .

كان طول الطوافة حسب الخشب بين خمسة عشر مترا" و عشرين ، كان علينا أن نجر هذه الأخشاب الهائلة بمفردنا نحن الاثنين ، ألف طريقة استعملنا و ألف حيلة ، بعضها نجح و بعضها كاد يقصف أعمارنا .

و بعد ذلك بعد صراع يومين أو ثلاثة مع البراميل و الجذوع و الحبال كنا نركب فوق هذه الطوافة نحن الاثنين ، ثم نفك الحبال و نبدأ بتوجيه الطوافة بواسطة مجدافين من جذوع الأشجار .

و تبدأ الرحلة الطويلة القاسية المدهشة المرهقة عندما يبدأ الجزر ، كان سيرنا سهلا إلى حد ما و إن كانت تقف في طريقنا عراقيل كثيرة : صخور ناتئة ، جزيرة صغيرة ، منعطف خطر ، ممرات ضيقة ، جذوع ميتة طافية ، كل ذلك كنا نتغلب عليه بالجهد و الصبر .

إلا أن الشيء الذي كان يهد عزامنا و يهددنا بالفشل كانت مشكلة المدد , المدد الذي كان يدفعنا إلى الورا محاولا" إرجاعنا إلى النقطة التي بدأنا منها .

التقدم مستحيل و التراجع ليس في صالحنا على الإطلاق . ما العمل ؟ . . .

كان تراجعنا إجباريا" إلا أننا كنا نحاول دائما" أن نقرب من الشاطئ و نجتهد في ربط طوافتنا بأشجاره , ريثما نستأنف رحلتنا مع الجزر الجديد .

لم يكن اقتربنا من الشاطئ دائما " في صالحنا , ففي الشاطئ صخور و أعشاب و ألياف و رمال أو وحول فيها أكبر الخطر على طوافتنا و مع ذلك كنا نغامر خوفا " من أن يحملنا المدد إلى أقصى مداه في داخل الغابة .

صدقوني , إنني لا أزال أرتعب من مجرد ذكرها , من مجرد تصورها , هدّت شبابي , هدمت صحتي , و لكن كانت هي الطريقة الوحيدة لتوفير خمسة فرنكات كل يوم . . . و إيداعها في نهاية كل شهر عند محفوظ , الله يذكره بكل خير . . .

الفصل الثالث عشر

حمد . . . حمد . . . البشارة لي يا حمد . . .

صوت من هذا الذي يدوي في أرجاء الغابة ؟ . . .

وقف حمد فوق طوافته عاريا " و الماء يسح على جسمه الشديد السمرة و يتساقط رذاذا " من بقايا شعر رأسه و من شاربيه الكثيفين الأشيبين . . . فقد كان يخرج لتوه من قاع النهر يتنفس بعض الوقت ليستأنف عمله المظني تحت الماء .

إنه صوت محفوظ . . . إنه يحمل الأخبار السارة . . . أي أخبار ؟ . . .

- عفو يا حمد . . . عفو . . .

أحس حمد بأن الطوافة تميد به , و بأن الشمس قد غامت , و بأنه يختنق هل يرقص من الفرح ؟ هل يبكي ؟ هل يصدق ؟ !

لم يستطع أن يظل واقفا" , أحس بركبتيه ترتجفان و بقلبه يخفق بحدة . . . و انحنى يحاول أن يجلس ليستعيد شيئا" من هدوئه .

إلا أن محفوظ كان يقفز و يعانقه عناقا " شبه مجنون , ثم يلتفت إلى زميل حمد إلى محمد عيد مشجعا" :

- أعتقد أنه عفو عام . . . ما أحلى الفرج بعد الضيق . . . الحمد لله الحمد الله . . .

جلس حسين في مكتب صديقه مدير البوليس يستفسر عن طريقة مغادرة الجزيرة و العودة إلى الوطن
و كان المدير يؤكد لهم دائما أنهم لا يستطيعون مغادرة البلاد دون تأشيرة قنصل , دون فيزا , و من ثم فإن
أجرة الطريق يتحملها المسافر نفسه .

من أين لسورية قنصلية في الغويان ؟ و لما لم يمض على استقلالها بضعة شهور .

أما أجرة السفر فأمر أقل صعوبة و إن كان العفو مفاجأة لم يتوقعها أحد حتى حسين نفسه

ما اشد مرارة تلك الليالي التي قضاها حسين و حمد و رفاقهما في انتظار حل لتلك المشكلة , ما أشد قسوتها ,
غريق على شاطئ البحر يتحسس صخرة النجاة و لكنه لا يستطيع أن يجد موضعا ليده فيها

إلا أن حسين استطاع أن يمشي يده و يد رفاقه من الصخرة العاتية : الفلوس ...

فتح مدير البوليس كفه و قبض أربعة آلاف فرنك ... أجرة عامل كاملة لمئة يوم , و مد المنفيون
العائدون المحظوظون يد المساعدة و المعونة بسخاء و شهامة إلى رفاقهم المعوزين ...

لم يحاول أحد أن يخفي شيئا" ! هذا كل ما أملك ما زاد عني خذوه و أعطوه لمن يحتاج من رفاقي .

..

و أقبلت الباخرة تتهادى ... ما أجملها ! ... ما أعظمها ! قد تكون هي نفسها التي حملتهم إلى
المنافي ... قد تكون هي نفسها التي كانوا يسخرّون لتفريغها من البضائع و الأبقار و مع ذلك فقد بدت في
أعينهم اليوم في غاية الجمال و العظمة و الروعة ... إنها تكاد تضحك لهم , تكاد ترقص ..

هل يصدقون حواسهم بأن الطوافات تحملهم إليها أحرارا " بعد عبودية و عذاب رهيبين طوال

عشرين إلى خمسة و عشرين عاما" ؟ ! .

و بأنهم يخرجون أحياء من مدينة قايين حفارة قبور الغرباء و من الغابات الرهيبة الوالغة في دمائهم و دموعهم
و عروقهم ...

كانوا يؤمنون و ظلوا يؤمنون بأنهم عائدون ... عائدون إلى الوطن . فلماذا ارتابت حواسهم اليوم
بما آمنت به قلوبهم طوال أعوام طويلة مريرة ...

إنهم بشر معذبون ... يعيشون على الأمل , على الوهم , و هاهم مثل جميع البشر يضطربون ,
يتلجلجون في اللحظة ذاتها التي يتحول فيها الأمل أو الوهم إلى سعادة .

إنهم يخافون أن تكون تلك السعادة من بعض أوهامهم الكثيرة التي عاشوها و من بعض أحلامهم

التي ما تلذذوا بها ساعة إلا و تجرعوا مرارة خيبتها ساعات ...

و انطلقوا يتحسسون سلام الباخرة و يشدون عليها بأيديهم و قلوبهم , و هم يتلمسون أشياءهم

القليلة التي يحملونها , و يبتسمون بسخرية من أدوات السفرة التي تجبرهم أنظمة الباخرة على اصطحابها ,
شوكة , سكين , ملعقة ...

شوكة و سكين لجماعة عاشوا على العدس و الكواك طوال عشرين عاما" أو أكثر . . .

من منهم يعرف كيف يحرك يده بها دون أن يضحك هو من نفسه؟! .

و عندما بدأت الباخرة تتحرك و هي تنفث الدخان و الصفير المبحوح كانت الأيدي ترتفع مودعة و تلوح للفضاء , للأفق , للغابات الكثيفة السوداء لمدينة التنك و الأكواخ العبودية , للذل , لكرامة الإنسان المهذورة, لشبابه المتلاشي في ذكريات الدم و الدموع و السياط و الزنانات , للرفاق الذين ما زالوا يرسخون في أغلال الرق و هم يتطلعون إليهم بمزيج من مرارة و فرح . . .

كانت الأبصار معلقة في تلك البقعة الداكنة الخضرة , الشديدة السكون حتى الموت تحدق فيها و هي تبتعد شيئا" فشيئا" ثم تصغر و تصغر حتى تختفي مثلما يتلاشى الدخان في الفضاء .

و في المساء كانت السماء في غاية الصفاء و النجوم في غاية الزهو , و النسيم في غاية الرقة , عندما راح حمد يستلقي فوق كرسيه البحري الطويل و هو ينفث دخان سيكارتته في هدوء و سكون .

لقد كان يستلقي في كثير من الليالي في كوخه في الغابات خلال الأعوام العشرة الأخيرة , كان النسيم يداعب خصلات شعره في بعض الليالي و كانت النجوم تبدو لامعة و السماء صافية جميلة عظيمة .

إلا أنه لم يستطع أن يصدق نفسه بأنه قد رآها في ليلة من تلك الليالي في مثل هذه العظمة و الجمال و الروعة و لم يستطع أن يصدق نفسه في أن نسيما" في نعومة هذا النسيم و في لطفه قد مر به .

جس علبة الدخان الفارغة ثم رماها فوق الأرض الخشبية , و مد أصابعه الناحلة إلى علبة جديدة راح يفتحها بتمهل و هو لا يزال يغرق عينيه في السماء الصافية المتألثة .

الناس حوله غارقون في النوم أو في أسرتهم و بعض البحارة يتناوبون العمل في هدوء , أما هو فقد أحس بأنه على غاية من الراحة و السعادة في جلسته التأملية الحاملة . . .

أمس سياط و سجون و حرمان . . .

أمس خوف و جوع و مرض و حنين . . .

و هاهو الغد المشرق الطلق , غد الحرية و الكرامة . . .

غدا تطل أرض الوطن , غدا يطل الأهل و الأصحاب . . . غدا تهرع العجوز تشد بيد على لثامها و تلوح بيد للقادم الأشيب الناحل المتهدم . . .

ستعرفه بقلبها بغريزة الأمومة فيها , و قد تكذب عينيها و أناملها , و هل يكون ذلك الفتى الأسمر بشاربيه الأسودين النحيفين و قامته المليئة المنتصبه كالمرح و عينيه المتوقدتين و شعره الفاحم المسترسل , و هل ذلك الفتى الباسم الشديد المرح كعصافير الدوري , هو الشيخ الضامر بقبعته و خده الناتئ و عينيه الغائرتين , و جسمه المقوس , الناحل , المتجهم , المعروف , الشاحب العليل . . .

و لكنها لن تحزن سيكون فرحها كبيرا " عارما" به . . . يكفي أنها ستضمه إلى صدرها و ستسمع دقات قلبه النابض بالشوق و الوفاء .

و أحس حمد بجمرة السيكرة تلذع أنامله فرماها في حركة مذعورة و داسها بحذاءه مرة بعد مرة ، و من ثم سار متمهلا" نحو غرفته في حين كانت تبشير فجر هادئ شديد الصفاء تبدو في الأفق البعيد .

و لذّ لحمد أن يستلقي كل ليلة فوق كرسيه الطويل ينفث دخان سيكرته بهدوء غارقا" بين ذكريات الأمس و أحلام الغد ، لا يغفو إلا مع إشراقه الفجر ، حتى صباح اليوم الثامن عندما أطلت من بعيد الأرض الداكنة الخضراء أرض المارتينيك . . .

تذكر كيف أقبل بالأمس على الغويان و فوق صدره أثقال العبودية و في عينيه ظلام المستقبل الرهيب ، أما الآن فقد كان يقبل بقلب عارم بالفرح و الأمل ، و بنشوة العائد من معركة عنيفة مرهقة منتصرا" . . .

كان المركب الكبير ، عابر الأطلسي ، ينتظرهم لقد بدت باخرتهم إلى جانبه طوافة كبيرة ، و هاهم يتجولون في أرجائه لشديدة الأناقة و النظافة في مطعمه الواسع المزدهن بالصور الجميلة و الكراسي الجلدية الشديدة اللمعان و الموائد المكسوة بالشراشف البيضاء الناصعة ، و المزينة بالزهور و الأقداح المشرقة ، و ها هو الجرسون ينحني باحترام و أدب أمام الطاولة و هو يوزع الطعام الشهي فوق صينية كأنها من فضة خمسة صحنون لكل مسافر . . .

يا حمد . . . هل تحلم ؟ ! . خمسة صحنون أمامك ، تعبق رائحتها الشهية بأنفك ، و شاب وسيم باسم يسألك بلطف و بشاشة عن المشروب الذي ترغب . . .

في المساء موسيقا و رقص و طرب ، و في النهار أحاديث و زيارات متبادلة و لهو ، و في غرفة النوم سرير كالفل ، كالياسمين ، و جرس يكفي أن تضع أصبعك عليه حتى يهرع عامل ينحني باسم " و هو يرجو أن يقدم لك خدمة .

و عندما كان المركب الكبير يتوقف بعض الوقت في جزائر الغوادلوب و الترينيداد كان يسمح بالنزول إلى اليابسة و لا يزال حمد يتذكر انه عندما راح يتجول فيها تعرف إلى بعض أبناء العرب المهاجرين ، و مع أنه يأسف لأنه نسي أسماءهم مع الزمن ، إلا أنه لا يزال يذكر بأنه ، بل و للمرة الوحيدة في حياته يبدل بعض قطع العملة التي يحملها ليشتري قنينة كولونيا . . .

لقد رآها تتوقد في واجهة أحد المحلات كأنها قطعة من أشعة الشمس المذبذبة و أحس أن روح الشباب الجبلي تتواثب في صدره . . .

ألا يحق له أن يحمل إلى أحبابه هناك شيئا غير الذكريات البشعة السوداء ؟ ! . . .

و فجأة ، انقضت أمام عينيه صورة واحدة من تلك الليالي الرهيبة التي عاشها في الأدغال.

حاول أن يتجاهلها , أن يطردها و أن يهرب منها , إلا أنها كانت لا تتزحزح و هي تقف بينه و بين الفضاء اللامتناهي كما تنسدل الستارة الداكنة السميكة .

تناول سيكارة و أشعلها بقلق ما لبث أن تحول إلى استسلام المنهزم أمام الصور المرعبة المتلاحقة . . .

. . . كان يعود إلى العاصمة (كايان) , خلال الغابات المتشابكة المظلمة وحيدا" بلا سلاح يشد إلى ظهره بعض الأرفة و صرة من (الكواك) و يتوكأ على عصى قصيرة ثقيلة يزيج بها من أمام وجهه الألياف و الأغصان المتدللية .

و بدأ يحس أن الغابة تزداد ظلاما" , و بأن الليل بدأ يقبل , الليل المخيف الغادر .

كان حمد شجاعا" . إلا أن الخوف لم يعد عيبا" في مثل تلك المجاهل الشديدة الخطر , الغارقة في ظلام رطب مفزع .

راح ينبطح بين الحين و الحين , و يحدق في الظلام الدامس يستوثق من سيره , و يتوجس حذرا" من كل حركة أو حفيف . . .

و بغتة هبت عن شماله نسمة باردة , شعر معها حمد بأنها قادمة عبر فجوة في الغابة . . . لعلها طريق . . .

انحرف في حذر ثم انبطح من جديد يتفحص المكان بعينيه و أذنيه و مشاعره , و يتحسس بيده .

كانت بعض الأضواء الخافتة تختلس طريقها من السماء إلى الفجوات الضيقة , و خيل إليه أنه يلمح على ضوءها بريقا" معدنيا" . . . تقدم يجبو و مد يده و هو شديد القلق . . .

كان البريق بريق نصل لخنجر طويل , قد يكون حربة عسكرية أو بقية سيف , و قد تمددت إلى جانبه فأس يبدو أنها جديدة و ثقيلة .

رفعها في الهواء ثم رماها , فهو متعب لا يستطيع أن يثقل كهله بحملها , أما النصل , فقد كان هدية من السماء , أحس معها بأنه استعاد رجولته و شجاعته , و بأن الغابة لم تعد مظلمة رهيبه مفرعة إلى هذا الحد . . .

تقدم و هو يهز سلاحه بين الحين و الحين في حركة تشجيع مصطنع . . .

و لاحت على بعد أمتار منه قطعة سوداء عرف بالخبرة أنها كوخ خشبي من أكواخ الحطابين .

أحس بشيء من الطمأنينة و راح صوته يدوي في الغابة في محاولة لإيقاظ صاحب الكوخ , إلا أن نداءاته المتكررة المرتجفة ظلت بلا جواب . و مع ذلك فقد قرر أن يقضي بقية ليلته في ذلك الكوخ المهجور , و قد أحس فجأة بأنه متعب مرهق . . .

تقدم , إلا أنه ما لبث أن تعثر بقطعة قماش , رفعها و راح يتحسسها . . .

كانت قطعة بنطلون ممزقة و إن لم تكن بالية . . .

لم يكتث لها بل تركها تنساب من بين أنامله المرتجفة بلا اهتمام ، و في اللحظة التي كان يهم فيها بأن يدخل الكوخ أحس بأنه يدوس شيئاً " رطباً " ، فقفز إلى الوراء مذعوراً " ، و هو يضرب بنصله في الهواء ضربات مجنونة و يصرخ صرخات مدوية مرتجفة . . . إلا أن شيئاً ما لم يتحرك ، لم يختلج ، و رويداً رويداً استطاع حمد أن يتمالك نفسه ثم ينحني باهتمام ليرفع بيساره قطعة من قدم إنسان . . .

راح يربط بسرعة بين الفأس و قطعة البنطلون و بقية القدم فأدرك و هو يرتجف أن هناك ضحية ..

ها هو الآن يواجه الخطر الواضح في قلب الأدغال الغادرة ، و في ساعة متأخرة من ليل رهيب مظلم .

هل يلجأ إلى الكوخ ؟ لا إن الكوخ لم يستطع أن يحمي . . . و هذه هي بقايا صاحبه . . . فليبتعد إذن . . . إنه الحل الأفضل .

استدار و هو يتصبب عرقاً بارداً ، و راح يتلمس طريق العودة و هو يصرخ و يلوح بنصله في الهواء ليهرب العدو المجهول بقدر ما كان يحاول أن يبعث في نفسه الشجاعة و الثقة ، و من ثم فقد انطلق يغني بصوت أراده عالياً صافياً" إلا أنه بدا رغم كل جهده مترجراً" يعلو و ينخفض بلا اتزان .

كان يجبر ساقه جراً " عندما بدأ يقترب من النهر ، و راح يصرخ بلغة الأهالي الزنوج ، فهو يعرف بالخبرة أن هناك قارباً" لنقل المسافرين من الضفة إلى الضفة ، في مناطق التجول الرئيسية ..

تحرك حمد في (الشيزلونج) و قد جف حلقه و بدأت تدب في جسده الناحل قشعريرة خفيفة

كان هدير الباخرة يقطع سكون الليل بنغمة رتيبة خافتة . و الأضواء القليلة الساهرة تتراقص في أجواء المقاصير و الممرات ، و في السماء الشديدة الصفاء كانت النجوم أشد اقتراباً" و أشد لمعاناً" . . .

حاول أن ينسى ، أن يتعد عن ذكريات تلك الليلة الرهيبة ، و هو يحرق في الفضاء الواسع المتألم البليل ، إلا أنه لم يستطع أن يشريح بوجهه عن صورة ذلك الزنجي العاري و هو يقترب منه في قارب مجوف من جذع شجرة ، و في عينيه بريق حذر و استغراب ، لينقله إلى الضفة الأخرى واجماً" بادي الانزعاج . . .

و لم يستطع أن ينسى كيف أمضى بقية تلك الليلة في مصنع للخشب مهجور متهدم واسع الأرجاء كأنه قلعة قديمة خربة . . .

كان خائفاً" ، مرهقاً" ، مرتجفاً" ، أشعل النار و استلقى على طاولة ضخمة سميكة و هو يحاول أن يغمض عينيه ، إلا أنه سرعان ما أفزعته دوي هادر مفاجئ ينبعث من شقوق الجدران و راح يحوم في الفضاء ..

انكفاً على وجهه و سمر جسده المرتجف المرهق فوق الطاولة ، و هو يغطي أذنيه بيديه ..

إنها أعشاش زنابير هيجها الدخان و اللهب . . . و كانت الطريقة الوحيدة لاتقاء خطرهما الداهم , أن يتماوت أن يلتصق بالطاولة دون حركة كأنه قطعة منها . . .

إنها المرة الوحيدة التي أحس فيها بالذل . . . و مع ذلك فهو لا يزال يبتسم و هو يروي هذه الحادثة ابتسامة فيها مزيج من المرارة و الدعابة . . .

مسكين حمد , إنه لا يزال إلى اليوم يعيش في ذكريات المنافي و الأدغال .

كان يحلم و هو على ظهر الباخرة بأنه ينطلق نحو الحرية , نحو السعادة نحو الطمأنينة . .

رفاقه القدامى نسوه و أهملوه . . . سيفرحون به و سيغمرونه بفيض من الأشواق و الحنين و الصغار الذين لا يعرفهم سيجلسون إلى جانبه في المضافة يستزيدون من ذكرياته و هو يوزع عليهم بيده فناجين القهوة المرة و أكواب الشاي الداكن . . .

سينسى كل آلامه و كل ذكرياته السوداء في الوطن الضاحك الشديد الاعتزاز . . .

و مع ذلك فإن سحبا " صغيرة من الهم العابر ستمر به , إنه سيظل يذكر بأنه لم يعد شابا " معتدا" بفتوته , بقلبه و ذراعه , و بأنه يحمل في حناياه و في أجزاء متفرقة من جسده آثار المنافي و التشريد و العذاب و المستشفيات , و بأنه قد ترك هناك , خلف الغابات الشرسة الغادرة رفاقا" له , بعضهم غيبته المجهل إلى الأبد أو إلى حين و بعضهم الآخر لا يزال يتأرجح في أجواء المعتقلات الرهيبة و الغابات المتشابكة بين الرجاء و اليأس .

لن يسأله أحد غدا عن رفاقه من العرب المغاربة , لا أحد هناك يعرفه و إن كان الناس في بلده يحسون بالإشفاق نحوه , إلا أن أقرباء يونس و أصدقائه سيقومون منحة عندما يعود حمد وحي "دا" إلى السويداء بعد أن شاهد بعينه نهاية أخيه في السلاح , و سيبكي كثيرا" أقرباء حسين العاقل و هم يرتقبون عودته يوما ما شيخا" متهدما" غريب الزي و اللسان مثل حمد . . . أو لا يعود . . .

الفصل الرابع عشر

كانوا ستة يقفون وسط الزحام الهائل على رصيف الميناء في مرسيليا , يرطنون بالفرنسية الركيكة حيناً و يتابعون نقاشهم بالعربية المتعبة المرعبة أحيانا كثيرة .

و كان أحد الستة أكثرهم انفعالا في حركات يديه و عينيه و أكثرهم مشقة في متابعة الحديث و في التعبير عن أفكاره , إلا أن الخمسة الآخرين استطاعوا أن يفهموا منه بأنه أرمني الأصل عائد مثلهم من منافي الغويان , إلا أنه لا يرغب في العودة إلى سورية بل إنه يفضل البقاء في فرنسا . .

و ماذا ينتظره في سورية ؟ . . .

لقد قتل أبوه في المذابح التركية الأرمنية . و ماتت أمه في حلب و هي تنتظر عودة ولدها الوحيد بلا جدوى .

و هكذا بدأ (ارتين) يحس بأن ارتباطه بالشرق يتلاشى , فلا وطن ... و لا أهل ... و لا أمل ...
و كان عناق طويل اختفى على إثره ارتين بين الزحام و هو يلوح بيديه في حركة جناحي طائر ينطلق

...

و عاد الرجال الأغراب الخمسة إلى التشاور و التساؤل : حسين محفوظ و رشيد العلي من شمال سورية و محمد عيد عبد الكريم من بعلبك و أحمد فلاح من درعا و حمد عباس دياب من السويداء .

كلهم منفيون قدامى , انقطعوا عن العالم و الحضارة سنوات طويلة و ها هم الآن يجابهون مدينة مرسليليا الضخمة بتعقيدياتها و زحامها و سرعة حركتها و ضجتها و ألغازها .

كان حسين أقدرهم على الحركة في مثل هذا الجو الغريب و هذا الحشد البشري المتلاطم, فليكن هو القائد و المرشد ...

و كان همهم الأول أن يأكلوا ... أن يشبعوا , إنهم لم يكونوا جوعا " إلا أنهم جميعا " شعروا بالنهم ... برغبة في مطاردة البائعين المتجولين بعيون جائعة كعيون الذئاب .

تقدموا من سيدة سمينة بيضاء , كقطعة من الثلج يتلاعب النسيم بشعرها القصير الأشيب , و هي تنجول بشيء من الخفة خلف صناديق الخضار و الفاكهة . و هي تنادي بصوتها الدافئ ...

- بونجور مدام .

- بونجور مسيو .

و ابتسمت ابتسامتها التقليدية المرححة .

... الله كم كان التحدي مرهقا " جائرا" ...

سيدة تبتسم ... و خضار و فاكهة لا تقل إغراء و فتنة ... و توزعت النظرات المشدوهة التي كانت تبدو بلهاء بين الوجه الطلق و صناديق الفاكهة الزاهية ...

و تقدم حسين من صندوق العنب الذهبي و أشار ب يده و تمت كلمات لم تفهمها البائعة و لم يكن حسين نفسه يفهمها ...

لقد فتش طويلا" في ذاكرته عن الاسم الفرنسي لهذه الفاكهة و أجهد ذهنه و لكن دون جدوى.

- دي ريزان .

وي مدام ... وي مدام ... أن كيلو ...

و رفع أصبعه في الهواء , و هو ينقل نظراته المعجبة بل الوالهة بين الصناديق المتعددة الألوان و الحجوم .

آه ما كان أسعده لو استطاع أن يلتهمها جميعاً" . . . جميعاً" دفعة واحدة . . .

و قفزت إلى ذاكرته صورة مطعمه الشديد التواضع في (كايان) و ابتسم ابتسامة إشفاق , و هو يلقي على رفاقه نظرة فاحصة فإذا بهم في مثل ذهوله و ارتبائه و في عينيهم ما في عينيه من نهم و استفاقوا من سكرتهم على صوت السيدة الهادئ - سواسانت فران . . . مسيو . . . ستون فرنكا" . . . أجرة عامل ليوم ونصف في الغويان . . . أوف . . .

و انطلقوا يلتهمون العناقيد في استخفاف واضح بالنظرات الغريبة المستهجنة التي كان يلقيها عليهم المارة , و قد تأبط أحد الرفاق الخمسة رزمة كبيرة من البصل الأخضر .

و انطلقوا في اتجاه الفرن القريب حيث تفوح رائحة الخبز الطازج الشهي .

رفع حسين أصابعه يطلب كيلوين من الخبز الطازج و هو يبتسم لصاحب الفرن .

و دهش الرفاق و هم يرون الفرن يهز رأسه و لا يتحرك .

و كرر حسين الإشارة و الطلب و هو يحسب أن الرجل كان في غفلة عنه .

غير أن الفرن استطاع أن يكتشف من أشكالهم و من تصرفاتهم و من لهجتهم أنهم غرباء , انهم قادمون جدد . . . و من ثم استطاع أن يفهمهم بشيء من الصعوبة و بكثير من اللباقة أن الخبز يباع بالتقنين , و أن عليهم أن يحصلوا من المخفر على بطاقات تهمين .

و أرشدهم صبي الفرن إلى الدائرة المختصة , و التفت حولهم بعض الموظفين بكثير من الفضول بعد أن ترددت في أجواء الغرفة كلمات : لاغويان . . . سيري . . . داماس . . . و مع ذلك و بالرغم من كل التفاصيل التي أمكن للرفاق الخمسة أن يقدموها لهم سؤول , فإنه ظل يهز رأسه و هو يحاول إقناعهم بأن الخبز متوفر في جميع مطاعم المدينة و بأن لا موجب للحصول على بطاقة تهمينية.

و اشتد الجدل , فالغرباء الخمسة لا يستطيعون أن يتحملوا أسعار المطاعم و هم يفضلون أن يأكلوا في الهواء الطلق أو في الغرفة التي سينزلون فيها حتى لا يضطروا إلى الاستجداء بانتظار استئناف رحلتهم نحو الشرق .

و لاحت في العيون الفضولية نظرات الاستغراب لتلك الرزمة من البصل الأخضر يتأبطها الغريب الحليق الأشيب و تجاهل الرجل النظرات المسمرة على رزمته و هو المحروم منذ عشرين ع اما" من هذه الخضار الشهية .

و التفت بشيء من التهديد و الحزم و هو يؤكد بلغته الهجين و بحركات شديدة التعبير من يده الحرة بأنه مستعد لخطف الخبز خطفا" إن هو لم يحصل مع رفاقه على البطاقة .

و شعر المسؤول بالإحراج فتناول بيد مرتجفة بضع بطاقات ثم قدمها و هو يحس بأنها تنتزع منه
انتزاعاً" .

و اهتدى الرفاق إلى غرفة متواضعة حشروا تحت أسر تها أشياءهم القليلة و جلسوا يهرش ون بهرح
الأطفال و سذاجتهم رزمة البصل الأخضر و الأرغفة الشبيهة الساخنة .

و كان المساء يقترب و هاهم جميعاً"يشعرون بأن المدينة الصاخبة و الأضواء الباهرة المتعددة الألوان
تدعوهم بل تحاول اقتلاعهم من الشرفة الضيقة .

و أحسوا جميعاً بجوع أشد ضراوة لم يستطع التفتيش عن الرغيف طوال اليوم أن يخمد به بقدر ما
استطاع أن يحجبه من حين إلى حين , أما الآن و قد امتلأت بطونهم , فقد أحسوا بأن ذلك الجوع الآخر المفاجئ
يستبد بهم و يصرخ في أجسادهم .

إنهم رجال ... بشر حرموا من النساء ... من حديثهن ... من بسماتهن ... حتى من منظرهن
السنين الطوال ... و هذه هي مرسيليا المدينة الضخمة الصاخبة تخطر فيها و ترفرف كالفراشات الملونة الهائلة
جنيات من البشر بشعور من أشعة الشمس و عيون بلون البحر و أجساد كالحرير ... كالمرمر ...

كان حمد يقف أمام واجهة الفرن يستعرض الخبز و الكعك و البسكويت الشهي في انتظار خروج
رفاقه , عندما دفعته صرية بكتفها العارية البضة و هي تسير على عجل كأنها تطير إلى موعد

- باردون مسيو .

و اتبعها بابتسامة خاطفة و لفتة غزال ما لبث أن غاب بين الزحام المتماوج .

و شعر حمد بتيار يسري في عروق كان يحسبها جافة , و باضطراب في حنايا صدر ظنه تحطم إلى الأبد

...

و عندما خرج الرفاق لم يثر منظره المرتبك كثيراً " من اهتمامهم , فقد كانت البرداء لا تفارقه إلا لماماً"
و من ثم فإن فرحهم بالأرغفة الطازجة البيضاء الساخنة اللامعة كان يطغي على مشاعرهم بتلك اللحظة .

بقي حمد وحده في الشرفة يغيب من الأنوار و الألوان و الحياة المتدفقة أمام عينيه غبا في استسلام
هادئ تأملي صامت , في حين تسلسل الرفاق إلى الحياة نفسها يعبون منها دون ارتواء حتى الصباح .

و في اليوم الثاني كانوا يهيمنون على وجوههم في أنحاء المدينة الهائلة ... زحام ... سيارات ... أبنية
... قطارات ... حافلات ... مخازن ... مصانع ...

أه كم هي معقدة هذه المدينة ... كم هي مخيفة و مع ذلك كم هي جميلة مغرية نابضة بالحياة

...

و قادتهم أقدامهم من جديد نحو الميناء , إنه مدينة ثانية متحركة أشد حيوية و تعقيداً , و إن تكن
أقل رونقاً" و إغراء .

و في الميناء كانت الوجوه و اللهجات و الأزياء واضحة التباين , كأنها هي معرض اممي. حتى المقاهي و المطاعم المنتشرة على الشاطئ كانت واضحة التنوع في واجهاتها و زبائنها و إن تكن في أغلبيتها عمالية شعبية .

و استطاع حسين من خبرته السابقة في رواد المطاعم أن يكتشف أحد المطاعم المغربية في زاوية من زوايا الميناء الهائل الاتساع و على أبواب المطعم الزجاجية بدأ الجدل و التشاور للدخول أو العودة إلى البيت , نعم البيت , بالنسبة لهم على الأقل .

و استطاعت فكرة حسين في الدخول أن تنتصر , أليس هو المرشد و القائد ؟ . . .

جلس الخمسة حول طاولة صغيرة منخفضة ضخمة القوائم و طلبوا الشاي ..

فرنك تاي . . . فرنك سكر . . .

و في انتظار الشاي , كانت عيونهم تتجول في القاعة الواسعة العالية المتعددة الأعمدة و المزينة بزخارف مغربية ساذجة و لأنهم يفتشون عن وجه يعرفونه أو صديق يرتقبون وصوله المفاجئ من المجهول .

كان الرجال القلائل يلعبون ورق في صمت و هدوء لا يقاطعه غير صوت ارتشافهم لكؤوس الشاي , و ما عثم المقهى أن بدأ يغص بالزبائن و بدأ جوه الهادئ الحالم ينقلب إلى جو من الفوضى و الصخب و الدخان المتصاعد و النداءات المتكررة .

و تقدم الجرسون , شاب أسمر نحيل , يبدو أن يده اليسرى كانت عاجزة عن الحركة , و أخذ يوزع الأقداح السمراء في حركة آلية دون أي كلمة أو بسملة . . .

- اسمع يا أحمد , نحن من بلاد الشام , كنا في المنفى في الغويان وراء البحر الكبير , و نريد العودة إلى بلادنا , نحن غرباء هنا , نرجوك إرشادنا إلى أي شخص يستطيع أن يساعدنا على إنهاء معاملاتنا .

هز أحمد رأسه ثم انحنى انحناءة أتبعها بشبه بسملة و انطلق نحو زاوية نائية من زوايا المقهى حيث وقف في شبه استعداد يحدث رجلا " أشيب , في جيبه أثر جرح قديم كان يطالع جريدة فرنسية بكثير من الاهتمام و القلق .

طوى الرجل الجريدة و تآبطها ثم تقدم بكثير من الهدوء و التجهم صوب الغرباء الخمسة و شعت ابتسامة مجاملة في وجهه النحاسي و تمت مرحبا" و هو يتناول بنفسه كرسيا" من طاولة مجاورة.

- أهلا . . . أنتم من بلاد الشام . . . من بلاد سيدي عبد القادر مرحبا" بكم . . .

و دار حديث طويل حول الطاولة المنخفضة ذات القوائم الضخمة , و ضرب موعد في الغد في نفس المكان و الزمان .

و عندما وقف حسين يمد يده إلى جيبه ليدفع الحساب كان المغربي الأشيب يرفع حاجبيه و هو يتطلع خلسة إلى عامل المقهى الذي انصرف فوراً" إلى ركن آخر يجمع الأكواب الفارغة .

و في اليوم الثاني جلس الغرباء الخمسة في الركن ذاته و ما لبث أن تقدم منهم الرجل الأشيب يتبعه شاب في مقتبل العمر , على شيء من الأناقة .

و استؤنف حديث أمس , ثم خاطب الرجل الأشيب رفيقه الفتى بلهجة فرنسية طليقة لم يستطع الرفاق الخمسة أن يفهموا منها إلا بضع كلمات و مقاطع أدرك منها بعضهم أن الرجل يوصي بهم و يعهد إلى الشاب بإرشادهم و تأمين مصروفهم .

و عندما هم الرفاق بالانصراف كان الشاب المغربي الأنيق يرفع حاجبيه في وجه عامل المقهى مشيراً إلى أنه هو مسؤول عن الحساب .

إلا أن الشاب لم يسمح لهم بالانصراف و طلب منهم بل رجاهم أن يرافقوه إلى المطعم القريب , و عندما كان الرجال الستة يقتربون من الباب و هم يهيمون بالخروج كان نداء يتردد عالياً في المقهى الذي توقفت فيه الحركة و ساد صمت مفاجئ :

- يا أولاد ... بالصلاة على النبي ... عندكم ضيوف من بلاد الشام .

و تقدم الرجل الأشيب يحمل بيديه صينية راحت تتساقط فوقها قطعات من العملة في رنين متفاوت النغم أو تتناثر فوقها الأوراق النقدية المختلفة الحجم ...

و عندما كان الرجال يتجاوزون عتبة المقهى كان النداء لا يزال يتردد ...

- يا أولاد ... بالصلاة على النبي ... عندكم ضيوف من بلاد الشام من المجاهدين ...

و في المطعم أنبأ الفتى الجزائري ضيوفه بأن هذا المطعم مفتوح لهم ليلاً "نهاراً" على حساب الجالية العربية المغربية في مرسيليا .

أحس الرفاق الخمسة بالإحراج و كانوا في كثير من الأحيان يتهربون من تلك الضيافة و من تلك المساعدات المادية التي كانت تجمع و تقدم لهم , إلا أن الشاب كان يجهد في إقناعهم بل أن تلك الضيافة إنما هي واجب و ليست صدقة أو منة , و من ثم كان في الغالب يقتحم عليهم الغرفة ليوصلهم إلى المطعم أو المقهى .

و ذات يوم قدم إليهم الشاب خمس بطاقات سفر من مرسيليا إلى باريس بالقطار مع كتاب توصية و بطاقة بعنوان أحد الأصدقاء العرب المغاربة في باريس . و من ثم بدأ يشرح كيفية الوصول إلى القطار و كيفية مغادرة المحطة و الحصول على التاكسي .

و في الثامنة مساء كانوا يستقلون القطار من مرسيليا إلى باريس , و سرعان ما استغرقوا في النوم و هم يستعرضون ذكريات القطارات الرهيبة في الأمس البعيد البعيد ...

و في الصباح كانت الشمس تشرق على لوحة متحركة رائعة ... أنهار متدفقة ... و خضرة متلاحقة . و قرى و مزارع و مدن على غاية من الجمال و الذوق و البهجة ...

أف . . . كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينعموا بكل هذا الجمال و الخير و السعادة و هم يزجون بالألوف من أبناء الإنسان في منافي الغويان و سجونها و مجاهلها و يسخرونهم في أعمال الثيران ؟ . . . كيف يمكن لهؤلاء الناس الداهي المرح و الابتسام المرهفي الإحساس ، الوديعين ، الودودين أن يكونوا أخوة و أبناء لأولئك الجلادين الأجلاف في المستعمرات و في بلدان الانتداب ؟

تساؤلات هيمنت على أذهان الغرباء الخمسة الذين يستقلون القطار السريع لأول مرة في العمر . و الذين ظلوا يربطون هذه المناظر الرائعة الجمال ، النابضة بأغنى ما في الحياة من بهجة و أنس بذكريات المنافي الممعة في القسوة و الظلم .

كابوس ثقيل حاولوا أن يتخلصوا منه مرة واحدة ، أن يخففوه ، أن يحجبوه و لكنه كان يتشبث ، يلتصق بهم بعروقهم و جلودهم ، إنهم برغم كل مشاعر الانتصار الوطني و نشوة الاستقلال و الحرية لا يزالون حتى الآن يخافون من أن تكون ح لما " جديدا" واهما" من الأحلام الكثيرة التي عاشوها طوال سنوات المنفى و الأشغال الشاقة المرهقة .

و عند الظهيرة كان مراقب التذاكر في القطار يرشدهم بشيء من البشاشة إلى المحطة التي سينزلونها

و ما أن هدأت حركة العجلات و انقطعت ال صافرة عن نداءاتها ، و فتحت الأبواب حتى كان الرفاق الخمسة يشقون طريقهم بكثير من الارتباك و القلق و هم يحاولون باستمرار أن يظل بعضهم قريبا " بل ملتصقا" ببعض الآخر خشية الضياع بين هذه الأمواج البشرية و المتاهات الشاسعة من الردهات و المداخل و الأروقة و الأبواب .

و عندما كانت تنقلهم التاكسي عبر المدينة الأسطورية الهائلة ، كانت أعصابهم قد بدأت تهدأ و اضطرابهم يتلاشى تلاشي الضباب الشفاف في ذلك الصباح البهيج .

يا فرانسوا والله ما نطيع

باريز مربط خيلنا . . .

لي ديرة ماله مثيل

باريز ما تعادل لها . . .

أهازيج شعبية كانت تتردد أصدائها الحماسية في شعاب الجبال المضطربة و الأحياء الدائمة الغليان و ها هي تقفز إلى الذاكرة لئما يقفز الجني من القمم المسحور .

ما أشد اعتادا أولئك الناس و هم يجعلون منها في أهازيجهم مربطاً لخيولهم . . ما أعظم تمسكهم بتراب الوطن و اعتزازهم به و هم يفضلونه على عاصمة الدنيا . . .

آه . . . كيف أمكن لأبناء بلادهم أن يتمردوا على طاعة هذه العاصمة الهائلة الجبارة ! ؟

كيف أمكن لهم أن يرغموها على التسليم ؟

لا شك أن الثمن كان دماء و دموعا و شقاء و كفاحا " عنيدا" بطوليا" .

كان السائق يسير بشيء من السرعة و في صمت مطبق و كان الرفاق الخمسة يسبحون بأنظارهم و أفكارهم في هذا العالم السحري شديد الغرابة لا يتكلمون و لا يبتسمون و لا يتململون كأنهم تماثيل تنقلهم السيارة إلى بعض متاحف المدينة .

توقف السائق في منعطف بدا ضيقا " نسبيا" و أشار إلى الرجال أن يتبعوه إلى مدخل بناء باهت قديم كأكثر أبنية المدينة , ثم رفع أصبعه في اتجاه قنطرة من الطراز المغربي ترتفع فوق مدخل خشبي ضيق , و استدار ينحني مودعا " باسماء" .

كانت اللافتة الكبيرة (بار عمروش) بارزة واضحة فوق باب المدخل و كانوا قد تعرفوا في مرسيليا إلى ما تعنيه كباريه , و مع ذلك فقد ترددوا في أن يدخلوا بلا استئذان فليقرعوا الباب إذن .

و فتح الباب شاب أنيق بقميص بيضاء و ربطة عنق بشكل فراشة سوداء و هو يفتح عينين مشدوهتين كأنه يستغرب أن يقرع إنسان باب ملهى . . .

و رفع حسين في وجهه بعد تحية قصيرة , رسالة التوصية , و عندما قرأ الفتى العنوان ابتسم ابتسامة عريضة مشجعة و انحنى باحترام و هو يدعوهم إلى الدخول .

و تقدم حسين بشيء من الوقار يقدم الرسالة إلى السيد الشديد السمرة الذي يكاد يبدو زنجيا " لولا مبسمه الرقيق و شعره الناعم الشديد اللمعان .

كان الملهى خ البيا" إلا من بعض العمال القلائل الذين كانوا منهمكين في تنظيف المقاعد و ترتيبها و إعادة الأقداح البلورية المشعشة إلى الواجهاات الزجاجية .

و التفت الرجل أول ما التفت إلى التوقيع في أسفل الرسالة , و إذا به يتوقف فجأة عن متابعة القراءة و يدعوهم إلى غرفة جانبية كانت تقوم بترتيبها سيدة يبدو أنها أوروبية , ظلت تتابع عملها بعد أن تبادلت مع الرجل الأسمر بسمه ضاحكة .

و دعاهم الرجل إلى الجلوس فوق مقعد طويل منخفض تزينه سجادة مخملية ثم انهمك في متابعة القراءة و هو يطلق عبارة ترحيب مقتضبة خاطفة بين الحين و الحين .

و شعر حمد بارتجاف ظنه عابرا " , فشبك يديه فوق صدره بعصبية و شد ركبتيه في حركة مقاومة خفية , إلا أنه سرعان ما بدأت ساقاه ترتجفان ارتجافا" ظاهرا" اضطر معه إلى أن يعتمد بيديه كليهما على حافة المقعد الذي بدأ يهتز بدوره اهتزازا" خفيفا" متواصلا" , و عندما رفع الرجل عينيه عن الرسالة هاله أن يجد وجه واحد من جلسائه في صفرة الأموات و هو يتقلص تقلصا " مخيفا" في حين كان المقعد بادي الارتجاف و قد أخذ الرجال الأربعة ينظرون بقلق واضح إلى رفيقهم الذي كان ينتفض و كأنه ورقة كبيرة من أوراق خريف عاصف .

و أسرع السيدة تحمل معظفا " تلقيه على كتفي حمد ثم تناول من غرفة مجاورة كيسا " من الماء الساخن و قدحا" صغيرا" من الكونياك .

و استطاع حمد أن يتحامل على نفسه و أن يعتذر عما حدث في حين راح الرجل يخفف عنه بالتشجيع و الابتسامة المشفقة , ثم تناول من على المكتب القريب بطاقة خط على ظهرها بضعة أسطر و سلمها إليهم و هو يصفحهم بحرارة :

- أنتم هنا في باريس على حسابنا , أهلا بكم . . .

و هذا عنوان الفندق . . . أرجو أن تنتظروا هناك الساعة التاسعة صباحا" لتوصلكم السيارة إلى القنصلية اللبنانية إذ ليس لسورية حتى الآن قنصل .

و عندما وقفوا يستأذنون للانصراف شيعهم الرجل حتى الباب الخارجي و هو يوصي سائق سيارته بإيصالهم إلى الفندق .

و في اليوم التالي كانوا يدخلون باحة بناء فخم مسور تحيط به حديقة لطيفة يرفرف فوقها علم تتوسطه شجرة خضراء عرفوا فيما بعد أنها الأرزة .

كانت مقابلة القنصل مقابلة على غاية من اللطف و البشاشة , فقد ترك الرجل مكتبه و جلس بينهم باسماء "مرحبا" , و أمر لهم بالقهوة و بدأ يستمع إلى حديثهم بكثير من الاهتمام , ثم رجاهم أن يعودوا إلى القنصلية لمتابعة إنجاز معاملاتهم .

و في الجلسة الثانية طلب القنصل أسماء المنفيين و السجناء من أبناء المشرق العربي الأموات منهم و الأحياء .

و في المرة الثالثة كانت معاملاتهم قد أنجزت و ك ان القنصل يرحبهم أن يقبلوا سبعة آلاف فرنك كمساعدة تمكنهم من الوصول إلى الوطن و أن يقبلوا أيضا" أجرة الباخرة .

و لا يزال الناس القلائل الذين يزورون حمد يستمعون إلى حديثه الشيق الأغرب من الخيال يشعرون بمدى ما يكتنه من عرفان الجميل و الاعتزاز بأولئك الأصدقاء الشرفاء , في مرسيليا و باريس.

و لم ينتظر الرفاق الخمسة موعد الباخرة التي ارتبطوا بها بعد أن أنجزت معاملاتهم فاستقلوا أول باخرة تمكنوا من حجز أمكنة فيها نحو الشرق .

و في اليوم التالي كان أحد مرافقي فيصل الثاني ملك العراق يحدث جلالته بما ترامى إليه من أن بين الركاب بعض المنفيين السوريين يروون لرفاقهم المسافرين عجائب و غرائب أسفارهم و سجونهم و منافيهم و مجاهل بلاد الغويان القادمين منها .

و التفت الفتى الأسمر نحو المرافق ثم تمتم :

- زين يا باشا : استدعهم و خلهم يسلمونا ! . . .

الفصل الخامس عشر

شبح متجمع هزيل كان يستند بيديه الضامرتين إلى حاجز المركب يمزج بين بقايا أسنانه لفاقة تبغ و
يمسح بين الحين و الحين براحته خده الناتئ أو يمر بأصابعه على شاريه الأشعثين و هو يغ الب نسيم الصباح
القارس .

كان يرقب الفجر في هدوء عنيد , الفجر الذي لاحت تباشيره في الأفق البعيد . . .

فالسما لم تعد قائمة و إن بدت حواشيها غبراء باهتة تتسع بكل بطء و تدفع أمامها رداء الليل
الأشيب , و تحيط الغيوم الخفيفة المتناثرة بهالة من ضياء خجول .

كان وحيدا" , فالناس في غفوة أو ركود و البحارة لم يحاول واحد منهم أن يقترب منه , فقد أحسوا
أنهم أمام راهب مستغرق في صلاة و اكتفى بعضهم بأن يلقي عليه من بعيد نظرة احترام و تأمل.

و بدأت دقات قلبه تضطرب و أحس برجفة تهزه بين الحين و الحين , و أخذت تهوّم في خاطره و أمام
ناظريه صور مهزوزة مشوشة تختلط فيها نتف من الذكريات البعيدة و القريبة , و أطياف غامضة من الغد
المشرق .

و مع ذلك فقد كان شعور من السعادة هادئ عميق يهيمن عليه و يبعث في نفسه مع الفجر الباسم
فجرا" من الرجاء و مع انتصار النور نشوة من حلاوة العودة و اللقاء . . .

و يبدو الأفق الآن أشد وضوحا " فالجبال العالية تلتمع فيها بقايا ثلوج و اللون الداكن بدأ يميل إلى
الخضرة و الخط المتعرج الهائم المتلاشي يزداد دقة و تفصيلا" في بعض أجزائه .

و الظلال التي كانت تغلف السفوح لم تعد كلها كثيفة قائمة , في حين أخذت تبتسم من خلال
الفجوات الضبابية شفاه القرميد الأحمر و باقات القرى الملونة المتناثرة .

و مع أن نظراته كانت مسمرة على هذه اللوحة الحبيبة الجميلة الرا ئعة إلا أن أفكاره كانت تحوم
خلفها فوق لوحة بعيدة تلتفع مهندس مهندل سميك أبيض تشع من خلاله أشواق أم .

ومع الصبح بدأت الباخرة تموج بالمسافرين في شبه فوضى , و أحس حمد بأنه يقتلع نفسه من حاجز
الباخرة ليعود إلى أشيائه القليلة يهتم بترتيبها و حزمها , و ليتحسس عصا الأبنوس القصيرة التي حملها من هناك
تذكارا" ماديا" وحيدا" .

وحيدا" . . . لا . . . عفوا" . . .

فقد كانت الضلوع المهشمة , و الساق الكسيرة و الشيب و الوجه المغضن الشديد الشحوب و
السعال الجاف المتقطع . . .

كلها كانت أيضا " تذكارات مادية لربع قرن من الرق و الإرهاق و العراك الرهيب الصامت الطويل بين إغراءات الموت الحلوة و انتفاضات الحياة المريرة .

و انطلقت صفارات الباخرة و بدأت عمليات التفتيش , و الجوازات ساعات أحس فيها حمد بأن كابوسا" هائلا يجثم على صدره المهشم , و بأن الزمن يحاول أن يفجعه بأعز ما ظل يعيش من أجله و يتمناه طوال عشرين عاما" , بأن يلثم تراب أجداده قبل أن ينتصر عليه الموت .

و عندما بدأت القوارب الصغيرة تحمل المسافرين إلى رصيف الميناء لم يلتفت إلا قليلون منه م إلى شيخ شاحب هزيل يضرب براحة كفه الأرض و يرفعها إلى شفثيه ثم إلى جبينه و قد طفرت من عينيه الدموع متغلغلة في ثنايا شاربيه , أما هو فقد ألقى نظرة عجلى على حلقات العناق و الترحيب المتماوجة المتدافعة , و سمع دون إصغاء , هتافها و قبلاتها و تمتماتها و مضى يشق طريقه بجهد واضح بين الزحام , لا يعرفه أحد و لا يهتم به أحد و مع ذلك فلم يساوره أي انقباض أو غيرة فقد كان فيض من السعادة يغمر كل حواسه , و نفحة من كبرياء تهب مع كل نبضة من نبضات قلبه .

و انطلقت به سيارة تهدر بحماسة و اعتداد و راحت تطوي بسرعة مذهلة الدروب المصعدة المتعرجة

...

لم يشعر بأن بيروت قد تغيرت كثيرا" , لولا هذا الازدحام الهائل في شوارعها الضيقة المتقاطعة و ضجة أبواق السيارات المتلاحقة و هدير محركاتها , أما الطريق فقد بدا واضحا " إنه واسع أملس , و أن حركة السير مذهلة و مدهشة في حين بدت القرى أكثر اتساعا" و أجمل منظرا" و أوفر غنى و بهجة . و الأزياء الأوروبية أكثر انتشارا" !..

و في هدوء الحالم السعيد راح يستعيد ذكريات الأمس في هذه السفوح الضاحكة الساحرة , فأحس بنشوة لذيذة تسري في عروقه و أغمض عينيه يستؤيد منها و يستوثق , و عندما استيقظ كانت السيارة تتوقف و كان أحد رجال الشرطة يمد يده من نافذة السيارة و هو يتمتم : هويات .

و راح الشرطي ينقل نظره بين حمد و بين الأوراق التي كان يحملها , دون أن ينطق بكلمة واحدة و راح يقلب تلك الأوراق بشيء م ن الملل , و ما عتم أن دخل المركز ثم عاد بعد فترة يسلمها إلى صاحبها و هو يشير بيده إلى السائق بالانطلاق .

تحركت السيارة قليلا" ثم توقفت ثانية و تقدم عسكري بقبعته الحمراء و شاربيه الأسودين الكثيفين , يطلب من جديد الهويات يتفحصها و يعيدها بشيء من الاهتمام و التجهم الظاهرين .

و عندما كان الشرطي يتفحص الأوراق كانت عينا حمد عالقتين بل مسمرتين في علم صغير بنجوم ثلاث حمراء يرفرف فوق المخفر الحديث , و أحس بأن قلبه يخفق خفوق ذلك العلم ...

ود لو يقبله ... و د لو يضمه إلى صدره ... لو يبيلله بدموع راهب في محراب و أحس بأنه ينزلق من السيارة و ينتصب في وسط الساحة يؤدي تحية عسكرية خاطفة ثم يعود مسرعا" و هو يكفكف دموعه بكلتا يديه .

وبدا لحمد انه عاجز عن فهم ما قد حدث أثناء غيابه الطويل , و مع ذلك فلم يحاول أن يسأل لماذا أقيم هذا البناء الضخم هنا يسد الطريق بحواجز و سلاسل من حديد تنتصب على جوانبها مخافر متنوعة الحجوم و الأشكال يخرج منها و يدخل جنود بقبعات حمراء أو شبه خضراء أو بخوذ مموهة , و رجال بثياب مدنية يركبون سيارات مسلحة و يحملون تحت معاطفهم مسدسات ضخمة , و هذه الهتافات المنخفضة المتلاحقة : هويات , هويات يا شباب . . . و هذا التفتيش الدقيق حتى الإزعاج أحيانا " . . .

بالأمس عندما مرت قافلة العربات في طريقها إلى بيروت لم يكن شيء من هذا على الإطلاق و كان هذا السهل الضيق على مدخل وادي القرن مبعثا " لنشوة انطلاق و تحرر من رهبة تلك المتاهة الصخرية الرهيبة .

و عندما بدأت الجبال الصخرية ترتفع و تضيق على جانبي الطريق و تسد السماء إلا شريطا " أزرق يتعرج بتعرج الوادي , شعر حمد بأن الطبيعة هنا لم تغير إلا قليلا " من وحشتها غير أن سرعة السيارة و هدير المحركات و تردد أبواقها في المنعطفات الصخرية كل ذلك كان يخفف شيئا" من ملل الرحلة و وجومها .

و في صحراء الديماس انطلقت السيارة تطوي الأرض بهدير كاد يوحي لحمد بأن ينبه السائق إلى هذه السرعة الخطرة , و لكنه لم يفعل ذلك فلعله كان في أعماقه يشئق مثل هذه السرعة , و هل يستطيع أن ينسى مئات الأغاني التي كان يتمنى فيها أن يكون طيرا" أو أن يحمله جناح طير إلى الوطن .

و عندما أطلت السيارة على الوادي الشديد الخضرة و التعرج , بدأت تخفف من سرعتها , و أخذ هديرها الخافت يمتزج بحفيف أوراق الحور الصفصاف و المشمش .

و تطلع حمد بنهم صارخ إلى الأشجار الخضراء المرصعة بالذهب الأصفر , و خيل إليه أنه عاد طفلا" لا يستطيع أن يقاوم أو يخفي ذلك النهم بعد عشرين سنة أو أكثر من الحرمان .

و ما أن توغلت السيارة قليلا في هذا الوادي الأخضر الضيق حيث يخفي الحفيف هدير ضجة المحرك اللاهث , حيث انتشرت في الجو رائحة غريبة أقرب ما تكون إلى رائحة الكبريت , و ارتفعت من خلال فجوات التلال سحب خفيفة من دخان أسود و أبيض , ثم ظهرت فجأة أعمدة عالية , عالية تنفث دخانا " و برزت جوانب من مصنع كبير تعج بالآلات و العمال , و صناديق سوداء صغيرة تتحرك في الهواء ذاهبة آبية . . .

و شعر فجأة بأن الطريق الضيق المحصور بين النهر و الجبل قد اتسع و أن شارعا " واسعا" طويلا" تحف به الأشجار السامقة و البساتين قد انفتح على مآذن و قباب و أبنية مرتفعة متلاصقة في حين انتصبت على يمينه قلاع الملزة التي لم تتغير كثيرا" عن عهده بها . . .

هذه هي دمشق . . .

إنه لم يكن يألفها من قبل , كان يحس بأنه شبه غريب عنها , غريب عن عاداتها و تقاليدها و أجوائها , أما الآن فهي تبدو في ناظره واحة ضخمة تتلاشى على أعقابها كل مخاوفه و كل ظمئه و كل متاعب حياته القاسية .

المدينة تعج بالسيارات و العربات و الدواب و الناس و الدراجات في دوي صاخب و حركة عجيبة و
تماوج من ألوان و أزياء و إعلانات . . .

إنه يعرف دمشق , يعرفها جيدا" و لكنه شعر بأنه لا يعرف من دمشق الآن إلا تلالها , و النهر و
بعض مآذنها , أما الشوارع و أما الأبنية و أما الساحات فقد أحس بأن لمسة من أساطير الجن قد بدلتها .

و توقفت السيارة و التف حولها صبية صغار يتدافعون و هم يعرضون خدماتهم لنقل أمتعة
المسافرين , و عرف حمد من لهجة بعضهم و من شراويلهم الفضفاضة و كوفياتهم الملتفة كالعمائم حول
هاماتهم بأنهم من حوران و عرف من لهجة بعضهم الآخر و من عيونهم الشديدة اللمعان بأنهم من الجبل . .

و فجأة قفز حمد إلى الرصيف الآخر و أطبق ذراعيه في عناق خانق على كوفية بيضاء مصبوغة بالنيل
الخفيف مشدودة بعصابة باهتة الألوان .

كان الشاب ذو الكوفية و العصابة المشدودة بادي الارتباك , لم يستطع أن يتبين وجه معانقه و لكنه
أسرع يشد بيده على حافظة نقوده فقد برزت في ذهنه فجأة صورة النشالين الذي ن يتصيدون الأغراب بمثل هذا
العناق .

و قليلا" . . . قليلا" تراخت يد حمد و راح يمسح دموعه بإحدى كفيه و هو يشد بيده الثانية على
كف صاحبه :

أنا حمد بن عباس ذياب . . . من السويداء . . . يا هلا . . . بريحة الأهل . . .

فتح الشاب الأسمر ذو الشاربين المسترس لين عينيه النجلاوين بدهشة و استغراب , و كأنه لم يفهم
شيئا" . . .

و تابع حمد :

-- أين موقف سيارات السويداء ؟ . . .

و أخذ الشاب يشير بيديه في اتجاه معين و هو يحملق في هذا الوجه الشاحب و الشاربين الأشعثين و
الشعر الخفيف الأشيب و القامة النحيلة المتهدمة و الثياب الفرنجية القديمة و إن تكن على شيء من النظافة .
..

ثم انصرف بلا استئذان , و كأنه يفلت من مجنون هارب و عاد حمد إلى أشيائه القليلة يحملها تحت
أبطه و يشد على عصا الأبنوس السوداء القصيرة و يجر ساقيه في كآبة ظاهرة في الاتجاه الذي أرشده إليه الشاب
ذو العصابة الباهتة .

و بدا على حمد الارتباك و التردد و هو يحاول اجتياز الشوارع . . . كان كثير التلفت يسرع أحيانا" و
يتباطأ أحيانا" أخرى بلا سبب سوى ما يوحيه إليه خياله أو مبادهته , و شعر غير مرة بأن بعض السواقين كانوا
يتحاشون صدمه بشيء من الإشفاق و إن بعضهم كان يشتم و هو يلوح بيده مهددا" .

و عندما وصل باحة صغيرة مهملة يقف فيها باص كبير يلتف حوله عدد من الشيوخ ذوي العمائم البيضاء و اللحي المسترسلة و بعض الشبان ذوي السراويل الواسعة أو البذلات الأوروبية , و بعض النساء بثيابهن الحريرية الفضفاضة الزاهية الألوان و المناديل البيضاء الشفافة و صفوف الذهب المكدسة فوق الجبين و الصدغين و هن يستندن إلى سلال الفواكه و الخضار و الصناديق الص غيرة و الأكياس المختلفة الحجم . . . أحس بشيء من الذهول و لكنه تشجع عندما تقدم شيخ من كوة خشبية صغيرة و دفع بعض المال إلى رجل سمين يلبس الطربوش و يطل برأسه بين فترة و أخرى من تلك الكوة و هو يوزع أوامره و تعليماته على الحمالين و الركاب و المعاونين .

تطلع الرجل السمين ذو الطربوش الأحمر إلى هذا الشبح الغريب الذي يتقدم منه و تضاربت في رأسه شتى الأفكار و الصور و تتم و هو يمد بيده ليقبض الأجرة و يسجل الأسماء :

اسمك ؟

- حمد بن عباس ذياب من السويداء .

و رنت في أذن الرجل كلمة بن بلهجة مغربية , و كادت يده تتجمد في الهواء و لكنه ما عتم أن تناول المال و دفع به في فتحة صندوق أمامه و أعاد بعض القطع الفضية و النحاسية إلى الشبح الذي بدأ يستدير ليتخذ له مقعداً في الباص .

جلس واجماً" و هو يشد بكفه الناحلة على عصاه القصيرة الشديدة اللمعان و قد شد باليد الأخرى على أشياءه القليلة الجائمة فوق ركبتيه المضمومتين .

و صعد السائق إلى مقعده , و راح المعاون يصرخ :

- يلا يا جماعة . . . يالا يا شباب . . .

و تسارع الذين كانوا لا يزالون في الباحة و بدأت جلبة واضحة , و بعض التزاحم على المقاعد و ارتفع صراخ طفل و صوت امرأة تريد أن تتأكد من وجود سلتها في مكان أمين على السطح .

و بدأ المحرك يهدر و أخذ المعاون يربط الحبال فوق سطح السيارة الضخمة و عندما بدأت العجلات تتحرك ببطء كان الشاب الصغير قد قفز إلى الأرض يفتح الطريق أمام السائق ثم قفز من جديد إلى الباب الخلفي يفتحه بخفة و رشاقة و يسند ظهره إلى المقعد الطويل المتقلقل .

كان باب الجابية كعادته بل أكثر يعج بالناس على اختلاف أزيائهم و لهجاتهم و كانت الأسواق حول الساحة مسقوفة مظلمة تتدلى من دكاكينها الخشبية الصغيرة المتلاصقة المناخل و الاحذية و الجلود و ترتفع في جنباتها أصوات مطارق النحاسين في جلبة أجراس العيد .

هذه هي السنانية لم تتغير , و هذا باب المصلى و هذه بوابة الميدان ع لى حالها كأن لبنة واحدة فيها لم تتبدل و كأن مشربية واحدة فيها لم ترمم .

و تابع بعينه المناظر التي بدت و كأنها تتحرك حوله . . .

هناك مطار المزة الذي كان مسرحا " لتسلل الثوار و المغامرين , و هنالك قرى الغوطة الشرقية التي كان يعرف بساتينها و أحواشها و دروبها شبرا " شبرا" , إنها تختفي خلف غابات الزيتون و المشمش و الجوز و أشجار الحور الممشوقة , إلا أن ذكرياتها كانت تقفز في ذهنه نابضة بالحياة كأنه يحياها الآن .

و راح يتذكر رفاق الأمس . . . سقط الكثيرون منهم في ساحات الشرف و وقع الكثيرون أسرى و جرحى و ها هو الآن يعود حيا" لا يدري من بقي منهم على قيد الحياة , و لا يعلم من سيتيح له القدر أن يتسامر و إياه , عن تلك المعارك الرهيبة المتلاحقة التي شهدتها الغوطة و التي لا تزال مجال اعتزازها و فخرها .

و بدأت الشمس تختفي خلف جبل الشيخ , و هي توشي الغيوم بخيوط من ذهب و أرجوان و تنعكس على قمم لا تزال تلتفع ببقايا الثلوج , و بدأت أضواء السيارة تشع فوق الطريق الطويل الأملس , و بدأت تلتمع في جانبه بين الفترة و الفترة عيون الوحوش التي كان بعضها يسرع في الاختفاء بين حقول القمح الشاسعة في حين يظل بعضها واقفا" و كأنه يتحدى أو يتفرس في ذلك الوحش الغريب الضخم الهادر .

شعر بالبرد فارتجفت مفاصله كأنها عاودته البرداء , فراح يتحامل على نفسه في جهد ظاهر -- و تطلع إليه جاره بشيء من الإشفاق فأحكم إغلاق النافذة و هو يتمتم بصوت مسموع :

- مبسوط خواجه ؟ . . .

كان الرجل يظنه من بعض الأرمن النحاسين الذين يترددون على الجبل و حاول أن يغيره بالذهاب إلى قريته حيث الزبائن كثيرون و حيث لا يتردد إلا بعض المبيضين المبتدئين , إلا أن الرجل لم يسمع أي جواب فلاذ بالصمت من جديد .

و لاح من بعيد ضوء أحمر , و عامود يسد الطريق ثم لوحة مستديرة كتب عليها بالعربية و الإنجليزية , قف , و خرج من المخفر جنديان بقي أحدهما في الأرض و صعد الثاني بقبعته الحمراء إلى السيارة :

- هويات . . .

و بدأ العريف يتفرس في الوجوه و هو يتفحص الهويات , واحدة واحدة في سكوت مطبق يتخلله أحيانا" بعض الجدل لا يلبث العريف أن يقطعه بنبرة جافة متوعدة أو مؤنبة , و توقف طويلا" إلى جانب حمد , ينقل نظراته التي بدت حادة قاسية بين الوجه الشاحب الغريب , و رزمة الأوراق المقدمة إليه مختلفة الحجم و الألوان و اللغات .

و لاحظ الشرطي أن أبصار المسافرين جميعا " قد تسمرت في وجهه العابس , و أنها ترتقي منه أن يكشف هذا الشبح الغريب الذي بدا لهم لغزا" تزيده تلك الرزمة من الأوراق تعقيدا" و إحراجا" .

و لم يجد العريف على ما يظهر حلا سوى استدعائه إلى المخفر , فأشار بيده إشارة خاطفة أن اتبعني
و سار أمامه و هو لا يزال يحملق في رزمة الأوراق بين يديه .

- اسمك ؟

- حمد بن عباس ذياب من السويداء . . . حكمني الفرنسيون بالأشغال الشاقة عشرين سنة . . . و
صدر عفو و عدت إلى بلدي . . .

لم يكن رئيس المخفر بطبعه سهل التصديق , و خاصة في تعامله مع مناطق الحدود , فقد كانت
الريبة و الشك و الحذر هي الأصل في نظره إلى الأشياء و الأشخاص و مع ذلك فقد أحس نحو الرجل العجوز
المرتجف بشيء من الإشفاق , فقدم إليه قدحا " من الشاي أعاد إلى ذاكرة حمد أقدم البانونج التي كانت
تقدمها له أمه كلما أحس بالبرد . . .

و لم يحاول رئيس المخفر أن يستمع إلى أي تفصيل و إن أغراه الفضول فقد أدرك أن المكان و الزمان
و الهام الكبير الجاثم أمامه لا تسمح بالحديث المستفيض . . .

و فتح الحاجز , و عادت السيارة الكبيرة تهدر من جديد في السهول التي يغلفها الظلام رغم النجوم
التي كانت تلمع في السماء بصفاء غريب .

كانت تلوح على جوانب الطريق أحيانا " أضواء خافتة بعيدة أو قريبة لقرية لم يكن يبدو منها غير
شبح أشد اسودادا" من الليل الذي يغلفها , و لم يكن يسمع في جنباتها غير عواء الكلاب و بنات آوى .

قرية واحدة كانت تنيرها الكهرياء و يجتازها خط حديدي و ترتفع فيها أعمدة الأسلاك الشائكة
لتحمي بعض المنشآت العسكرية .

لم ينزل أحد من السيارة حتى الآن إلا أن بعض المسافرين أخذوا يستعدون للنزول فأحس حمد بأنه
يقترّب من منطقة الجبل من مسقط رأسه , من ذكريات طفولته و شبابه , من ميدان جهاده , من رفاق السلاح
, من الأم التي ظلت تنتظره بإيمان القديسين اثنين و عشرين عاما" . . .

و بدأت السيارة بين الحين والحين تتوقف لينزل منها بعض المسافرين يحملون أولادهم و أمتعتهم
و سلالهم على أكتافهم أو ظهورهم و يدلّفون بصمت رهيب نحو القرى التي كانت تلتصق فيها بعض الأضواء
الباهتة الصفراء في إطار من ظلام الليل الموحش و التلال الصخرية المخيفة فتزداد بعدا" و تزداد كآبة .

و في الأفق العالي بدأت تتراقص مجموعة من الأضواء أشبه ما تكون بالنجوم المتناثرة و المتقاربة ,
إنها السويداء

- آه ما أجملها ! ما أروعها ! . . . !

لم يكن حمد يعتقد أنه سيراهها بهذا البريق المتلألئ و يبدو أنها قد أصبحت مدينة صغيرة في غيابه .

و شعر حمد بأنه يتعرف إلى المناطق المحيطة به رغم الظلام : هذه هي رقة الصخر على يمينه حيث أجهز على بقية حملة ميشو , و هذه هي السجن , و المزرعة , و هذه هي الطريق المصعدة بين كروم السويداء و حقولها ...

و عندما أقبل على المدينة ذات الأضواء البراقة لم يصدق بادئ الأمر أنه يقبل على مسقط رأسه فإن هذه الأبنية الحديثة الملونة الجميلة , و هذه الأضواء و الشوارع المعبدة في هذه البقعة النائية عن البلدة ليست من السويداء التي يعرفها ...

و فجأة انقطع تيار ذكرياته و تأملاته عندما توقفت السيارة التي لم يبق من ركابها إلا القلائل أمام حاجز خشبي تقدم من خلفه شرطي يهتف بصوت عال حاد كأنها يحاول أن يوقظ من توهم أنه نائم :
- هويات ...

و من جديد قدم حمد أوراقه , و من جديد راح الشرطي يتفرس في وجهه و يحملق في الأوراق الممدودة إليه , و لكنه سرعان ما أعادها إلى صاحبها كأنه يتهرب من مجابهة هذا اللغز و يلقي تبعته على المخافر الأخرى التي مر بها .

و في الساحة العامة توقفت السيارة إلى جانب مثيلة لها و تراكض حولها صبيان صغار و كبار و هم يتدافعون و يتصارخون و قد بدت ثيابهم مهلهلة و نعالمهم بالية مرقعة , و شعورهم مشعثة مسترسلة ... و تقدم بعضهم من (الخواجة) الغريب و هم يحملون بصاديق و أمتعة تكفيهم جميعا " إلا أنهم سرعان ما ابتعدوا عنه و هم يركضون نحو زبون آخر , عندما نزل الشبح الشاحب الصامت و هو يحمل تحت إبطه رزمة صغيرة و في يده عصا سوداء تلمع في الأضواء لمعانا" لم يالفوه .

* * *

كان الحارس يتجول في الساحة , فتقدم يتفرس من بعيد في وجه حمد و يتفحص الأشياء التي يتأبطها , و عندما سار حمد باتجاه حي المشنقة , سمع صفره عالية من موقف السيارات انطلقت على إثرها صفره خافتة بعيدة , و تابع دون أن يسأل أحدا " فقد كان على يقين من أن السويداء القديمة لم يحدث فيها أي تغيير يحول دون وصوله إلى البيت وحيدا" بلا دليل .

و عندما اجتاز حي المشنقة في اتجاه الزقاق الطويل الموصل إلى مطبخ قصر نجمه , فوجئ بشارع طويل مستقيم تغطيه الحجارة المرصوفة رصفا حديثا " و قد تراكمت على جانبيه بقايا الأبنية و العلال التي هدمها الشارع الحديث . و مع ذلك فقد سار في ذلك الشارع يتذكر بعض الأبنية فيه و بعض الأزقة المفضية إليه , لا يكلم أحدا من المارة و لا يكلمه أحد و إن أحس هو في أعماقه بأن نظرات الريبة و الاستغراب كانت تشيعه , و إن هو لاحظ أن حارس الحي يتبعه من بعيد بكثير من الاهتمام و القلق ...

و توقف أمام بعض البوابات على يسار الشارع إلا أنه ما عتم أن أبتعد عنها و هو يتفحص بوابات الخشب و التوتياء و يرفع رأسه الأشيب إلى الأعلى بين الفترة و الفترة .

و توقف أمام بوابة خشبية متهالكة ترتفع خلفها أغصان شجرة توت عالية لأوراقها الفتية حفيف ناعم .

و أحس حمد بالدم يتدفق إلى رأسه و برجفة تهز ركبتيه هذا متلاحقا " و سمع دقات قلبه تتواكب بلا انتظام , و عندما رفع عصاه يقرع بها الباب قرعا " رقيقا" كانت يده ترتجف و العرق البارد يتصبب من جبينه .
و لاح نور قنديل خافت في الباحة و تقدمت خطوات بطيئة متثاقلة و انتقل في الظلام صوت متهدم حاولت صاحبته أن تودعه شيئا" من الثقة بالنفس و إن بدت في ثناياه نبرات من الخوف و التردد.
و عندما صرت البوابة وهي تفتتح ببطء و حذر كان حمد يرمي في عناق صامت على الوجه المغضن الملتفح بمنديل أبيض سميك .

الخاتمة

غصت دار عباس ذياب بالناس , شيوخ , و شباب , و نسوة حتى الأولاد كانوا يتجمعون فوق السطوح المطلة أو يمدون رؤوسهم الصغيرة من خلال البوابة و هم يتهايمسون أو يتدافعون , و فاحت رائحة القهوة و الهال و ترددت أصداء المهياج الطروب في الحي الذي بدا في شبه عيد أو مهرجان و أشعلت نيران الزينة فوق السطح و راح الشباب يهزجون في أضوائها المتراقصة الخافتة حيناً و اللاهبة أحيانا و هم يرددون على ألحان المجوز و الشبابة .

عالمزعة يا شبابي تانلاقي حمد ذيابي

كان حمد يبدو نشيطا " مرحا" يوزع ابتسامته مع فناجين القهوة المرة , يرد على أسئلة الجميع و يحدث الجميع بكل بشاشة و انطلاق , و إن توقف بعض الأحيان يفتش عن الكلمة المناسبة و إن كانت بعض عباراته مزيجا" من اللهجة المغربية المشوبة بالفرنسية الركيكة .

و كان يستمع بشغف و شوق إلى أحاديث رفاقه القدامى عن الثورة و ما بعد الثورة عن الكفاح المستمر العنيد في سبيل الوحدة و الاستقلال و عن معاهدة 1936 و عن عودة المجاهدين من الصحراء بعد إثني عشر عاما" من الغياب و عن الحرب العالمية الثانية و معارك 1945 الرائعة , البطولية التي أدت إلى الجلاء ...

و كانت النسوة يحدثن أم حمود عن ضرورة زواج حمد , يجب أن يكون له من يهتم به , بأكله, بغسيل ثيابه , بترتيب بيته , و أن يكون له ولد تقرر عينيه به بعد الشقاء الطويل , ربك كريم يا أم حمود ! ..

تذكرت أم حمود العروس التي انتظرت حمد عامين كاملين و تذكرت أنها شاهدتها في السنة الماضية في (البلخي) مع ابنة لها في الخامسة عشرة من العمر , و أنها سلمت عليها , و تذكرت بسمة استخفاف كانت تبدو على شفتي الصبية الصغيرة عندما كانت العجوز تتلمس ضريح الولي تبلل جنباته بالدموع و تغمرها بالقبلات المحرقة و هي تردد :

- يا بلخي ... لك مني كبش إن رجح حمد , لك مني أزورك حافية يا بلخي ...

و لم يتردد حمد عندما عرضت عليه العجوز فكرة الزواج , بل خيل إليها أنه كان يرغب بذلك فهو لا يزال رجلا" و لن يسمح للناس أن يتهامسوا بأن المنافي قد أفقدته شيئاً" من رجولته , و هو يتشوق لأن يكون له ولد بل أولاد .

كان يعرف جيداً " بأنه فقير , بل معدوم و أن المئة و الأربعين ليرة سورية التي قدمها له بعض الشباب هدية قد نفدت و مع ذلك فهو يشعر بأنه رجل لا يزال قادراً " على العمل , رغم كل شيء و أنه يستطيع أن يكون رب عائلة مثل كل الناس . و هو يشعر أيضاً " بأنه يجب أن لا يكون هدفاً " لشماتة أولئك الذين أوقعوه في الأسر .

و بذلت بعض المساعي من أجل تأمين وظيفة للرجل , و بعد إلحاح من رفاق الجهاد , وجد بين المتنفذين في الدولة من استطاع أن يؤمن له وظيفة آذن ... وظيفة فراش ...

* * *

و ذات يوم وقف حمد وقفته العسكرية المعتادة أمام رئيسه الجديد , اليدان مشدودتان إلى الجانبين و القدمان بشكل سبعة , سلم بصوت واضح و إن يكن متهدجا " إلا أنه لم يسمع جواباً " بل همسة خافتة , ثم دمدمة عالية :

- اسمع ... أنا لا أقبل الكسالى في الوظيفة .

لا أقبل أن تتأخر دقيقة واحدة عن العمل ...

و بهت حمد و ارتجفت ركبتاه , و ازداد لونه شحوبا و تمتم ...

- سيدي ... أرجوك ... كل الليل و أنا سهران على زوجتي و هي تلد بشروني بغلام و مع ذلك جئت إلى الدائرة قبل أن أراه ...

و سمع حمد أو خيل إليه أنه يسمع :

- أولاد ! ... و في مثل هذه السن ! ... و في مثل هذه الحالة ! ...؟

ثم ارتفع الصوت حادا " جافاً" , و امتدت اليد بإشارة حانقة نحو سلة فارغة في زاوية المكتب :

- بسرعة ... الأغراض عند السمان ... و الست دوختنا بالهفونات ...

جر حمد ساقيه المرتجفتين نحو السلة جرا " و انحنى يحملها كأنه يرفع صخرة و تراجع نحو الباب
يحاول أن يحيي رئيسه ...

و في منتصف الشارع توقف بلا شعور يشعل سيكارة ثم ينطلق في جهد ظا هر مكابر و هو يتمتم

:

- معليش يا حمد ... آذن ... عتال ... لاباس ... عندك عجوز ...

و صار عندك صابر ...